✍ منهج الإمام أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) في الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين

إعداد:

د/ مدروس رمضان حفظي عبد الغني

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط جامعة الأزهر

✍ منهج الإمام أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) في الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين

محروس رمضان حفظي عبد العال

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، جامعة الأزهر، أسيوط، مصر .

الإيميل الجامعي: mahrousramadan2@azhar.edu.eg

الملخص :

هدفت الدراسة إلى إبراز منهج الإمام الأشعري في كيفية الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين، والإشارة إلى أهم المعالم المنهجية والآليات المعرفية التي انتهجها في هذا الأمر بغية خدمة مذهب أهل السنة والجماعة كي يستقي منها المعاصرون، ويسير في دربها العالِمون، قاصداً أيضاً من تلك الدراسة بيان أن المنقذ الوحيد من التشرذمات الفكرية العودة إلى المنبع الأصيل لهذا الدين الحنيف على ضوء ما رسمه علماء أهل السنة والجماعة، ومنهم العلم الفذ الشيخ / أبو الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) .

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي والاستنباطي والتحليلي من خلال استقراء أقوال الإمام من كتبه، والتماس أقوال المحققين الذي سبروا آراءه مع تحليل موجز لها؛ وذلك سعياً إلى إظهار منهج الإمام في الاستدلال بالنص القرآني بعد أن فقدنا تراثه التفسيري حيث تشير المصادر إلى أنه كان ثرياً بمادته العلمية في الرد على هؤلاء الملحدين والمخالفين .

وقد اشتمل البحث على ترجمة موجزة للإمام الأشعري من حيث: اسمه، وكنيته ولقبه، مولده، وشيوخه وتلامذته، ووفاته، وذكر أهم مؤلفاته العلمية، ثم

بيان أهم جهوده في الرد على الملحدين والمخالفين من خلال استخدامه النصوص القرآنية، مع الحديث عن السمات العامة في منهج الإمام عند الاستدلال بالنص حيث أعمل جملة من القواعد والضوابط الترجيحية كتفسير القرآن بالقرآن، والاحتكام إلى السياق، وسبب النزول، والاستشهاد بالسنة النبوية، واعتماد لغة العرب تبعاً للخضوع إلى المحكم منها، والجمع عند الاستدلال بين النقل والعقل، والقول بالمجاز وتأويل النصوص المتشابهة، والشمول والواقعية، واستمرار الفاعلية .

كما تناول البحث الحديث عن أثر منهج الإمام الأشعري على واقع الأمة الإسلامية حيث حفظها ولم شملها، وصانها من الشتات، وجابه أبرز الأفكار الهدامة، وواجه أهم الاتجاهات المنحرفة، وتأثر به جل المفسرين في اتجاهاتهم المتنوعة، فكان منهجه كالبلسم الشافي الذي تلتئم وتشفى به الجِراح المتفاقمة, ويتوقف به ما تنفثه من حمم ولهب متتالية .

الكلمات المفتاحية: الأشعري – منهج – الاستدلال – النص – المخالفين – القرآني، الملحدين .

The approach of Imam Abu al-Hasan al-Ash'ari (d. 324 AH) in inferring the Qur'anic text in response to atheists and violators

Mahrous Ramadan Hefzy Abd El , Aal
Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wah in Assiut, Al-Azhar University, Assiut, Egypt.
Email: mahrousramadan2@azhar.edu.eg

Abstract:
The study aimed to highlight the approach of Imam Ash'ari in how to infer the Qur'anic text in response to atheists and violators, and to refer to the most important methodological features and cognitive mechanisms pursued in this matter in order to serve the doctrine of Ahl al-Sunnah wal-Jama'ah in order to draw contemporaries from them, and walk in the path of the worlds, also intending from that study to show that the only savior from intellectual fragmentations Return to the authentic source of this true religion in the light of what was drawn by the scholars of Ahl al-Sunnah wal-Jama'ah, including the distinguished science Sheikh / Abu Al-Hasan Al-Ash'ari (d. 324 AH).
The researcher used the inductive, deductive and analytical approach by extrapolating the statements of the Imam from his books, and seeking the statements of the investigators who probed his opinions with a brief analysis of them, in an effort to show the Imam's approach to inference from the Qur'anic text after we lost his explanatory heritage, as the sources indicate that he was rich in his scientific material in response to these atheists and violators.
The research included a brief translation of Imam Ash'ari in terms of: his name, surname and surname, birth, elders

and students, and his death, and mentioned the most important scientific writings, and then a statement of the most important efforts in response to atheists and violators through the use of Quranic texts, while talking about the general features in the approach of the Imam when inferring the text where I work a number of rules and controls weighting such as the interpretation of the Qur'an with the Qur'an, And resort to the context, the reason for the revelation, and the citation of the Sunnah of the Prophet, and the adoption of the language of the Arabs according to submission to the arbitrator of it, and the combination when inference between transmission and reason, and saying metaphor and interpretation of similar texts, comprehensiveness and realism, and continued effectiveness.

The research also dealt with the talk about the impact of the approach of Imam Ash'ari on the reality of the Islamic nation, where he saved and reunited, and protected from the diaspora, and confronted the most prominent destructive ideas, and faced the most important deviant trends, and was affected by most of the interpreters in their various directions, his approach was like a healing balm that heals and heals the aggravated wounds, and stops by what you spew from lava and flame successively.

Keywords:
Ash'ari – Methodology – Inference – Text – Violators – Qur'an, Atheists.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ذي السلطان العظيم، والمن القديم، والكلمات التامات، والدعوات المستجابات، والمشيئات النافذات، الذي لا يتم شيء من ذوي الإرادات إلا بإذنه، وإمداده بالحول والقوة، ثم الصلاة والسلام على نبيه المبعوث بالدين الواجب، الموصوف بأحسن الأوصاف، وأجل المناقب، طهَّر الوجود من جميع المثالب، وعلى أزواجه وأصحابه الغُر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، **أما بعد**:

فلقد زخر تاريخنا المجيد بأعلامٍ كانوا وما زالوا منارة للحضارة الإنسانية حيث تجلى فيها جمال البناء على طريق هدي السماء، كانوا للشريعة حُماة، وهبوا حياتهم لها، وتحملوا في سبيل فهمها فهماً صحيحاً ما تحملوا، وكان الإمام "أبو الحسن الأشعري" أحد هؤلاء العظام الذين واكبوا مسيرة العطاء، وأسهموا في بناء هذا الصرح الشامخ، فأزهق الله به الباطل، وانجابت به دياجير الظلام، وانقشعت به غشاوة الشبهات، وتكسَّرت على أعتابه كل بدعة وضلالة، وقد احتل الإمام مكانة عظيمة بين سادات عصره حتى صار علماً يشار إليه بالبنان، ولا تزال أفكاره – حتى اليوم – نبراساً للعديد من المؤسسات الدينية والفكرية في شتى ربوع المعمورة، ولعل بعض تراثه الذي بين أيدينا اليوم ينبئك عن تلك المكانة التي تبوأها الإمام حيث غطت جانباً مهماً في المكتبة العربية والإسلامية .

إن الإمام الأشعري رغم المحاولات الصبيانية المتعاقبة – إلى اليوم – ومعاول الهدم التي تريد أن تنال منه، وتعمل على تقديم صورة غاشمة عنه على امتداد العصور والأزمان – مع ما اتصفت به تلك المحاولات من

الحماقة وعدم الإدراك لمدلولات الألفاظ- إلا أن شخصيته ظلت كالصخرة العاتية تواجه قرون الوعول الحانقة التي سرعان ما تهن وتتفتت أمام متانة هذه الصخرة، ولم يزد هذا التزوير وذاك التشويه الإمام ومذهبه إلا تقدماً، ولم يثن شيعته عن التعلق بهما، والدعوة إليهما، وصدق ربنا حيث قال في محكم التنزيل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[1] ، ولله در القائل:

ما يُضيرُ البَحرَ أَمسى زاخِراً ∴ أَن رَمى فيهِ غُلامٌ بِحَجَر[2]

إن النص القرآني عبر حركات التاريخ المتعاقبة قد انبثقت تجاهه فهوم مختلفة بعضها حاولت تهميشه، وسلبه مرجعيته، وبعضها وقف موقف الجمود والتمسك بظاهره، ومنها من انحرف في فهمه وبيان مدلوله تحت ظلال الهوى والمذهبية واللاموضوعية لكن الإمام أبا الحسن الأشعري وقف خاشعاً مذعناً، وعرف كيف يستدل بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين لأهل السنة، وسبكه سبكاً متكاملاً فنأى عن الانحراف والزيغ والضلال، وهو بهذا المنهج قد نال حظاً وافراً في كتابات المستشرقين، واستولى على اهتمام الباحثين، فمنهم من تناول مؤلفاته بالتحقيق والدراسة، ومنهم من ترجم بعض رسائله وكتبه، وبعضهم تعرض لآرائه وأثرها فيمن جاء بعده، وقد تردد في ذهني عدة تساؤلات، وتأرجح

---

(١) [سورة الرعد: ١٧] .

(٢) البيت للأخطل في ديوانه ص ١٧٥، ط: دار الكتب العلمية، الثانية ١٤١٤هـ، ونسبه الثعالبي للفرزدق . المنتحل للثعالبي ص ١٥٢، الناشر: المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٣١٩هـ، والقيرواني في الممتع في صنعة الشعر ص١٥٦، ت: محمد زغلول، ط: منشأة المعارف، الإسكندرية .

قلمي عن الكتابة في هذا الموضوع خاصة أن الإمام الأشعري لا نملك – بين أيدينا الآن – شيئاً عن تراثه التفسيري لكنني قلَّبتُ صفحات مؤلفاته المطبوعة فوجدتها ثرية دسمة بما يكفي للكتابة عنه، حينئذٍ شمرت عن ساعدي واستخرتُ ربي – سبحانه – فهداني إلى تدوين هذه الورقات من باب الاستشعار بالمسؤولية وليس من باب الأهلية، فجاء هذا البحث الموسوم بـ : ((**منهج الإمام أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) في الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين**)) فأرجو الله العلي القدير أن أسدد وأوفق في هذا العمل .

أهمية الموضوع وأسباب اختياري له:

تكمن أهمية الموضوع وسبب اختياري له في الآتي:

أولاً: عظم وشراسة ما يحاك لتلك الأمة من محاولات تحاول العبث بتراثها، ومن أقلام ممولة، وحملات ممنهجة، ودعوات منظمة لا تزال تنال من علمائها، يأتي دافع كتابة هذا البحث كي يؤكد أن أمتنا منذ نعومة أظفارها شهدت – وستظل – ميلاد أئمة للفكر البشري عبر كل زمان ومكان، والإمام الأشعري من أعظم هؤلاء على الإطلاق .

ثانياً: الرغبة الشديدة والفكر المتلاحق في إلقاء الضوء على علم من أعلام أهل السنة، والعيش في رحابه، وبيان منهجه في كيفية الاستدلال بالنص القرآني، وإظهار قبوله وذلك بعرضه على ميزان النقل والعقل، وإثبات أن منهجه يتفق مع ضوابط أهل السنة، ويتنافى عن وسم البدعة؛ وذلك للرد على أصوات طالما تعالت وتغنت باتهام الإمام بشذوذ منهجه العقدي والتفسيري، وكرست جهودها لنشر ذلك بكل ما أوتيت من قوة .

ثالثاً: محاولة رصد جهود أهل السنة، وإظهار أنهم قادرون على التغيير الإيجابي نحو الأفضل لمجرى التاريخ الإنساني والإسلامي معاً، وجمع المادة العلمية التي تخص منهج الإمام في الاستدلال بالنص القرآني للرد على المخالفين حتى تكون موئلاً للراغبين، ومرجعاً للدارسين؛ فالباحث اليوم إذا أراد أن يرجع إلى تراثه مباشرة ليستجمع منه تلك المادة يأخذ وقتاً طويلاً، وجهداً بالغاً .

الدراسات السابقة:

أما عن الدراسات السابقة فقد تناول الباحثون والدارسون شخصية الإمام الأشعري من جوانب مختلفة، وقد نظرتُ – فيما تيسر لي – فلم أقف على بحث مستقل تناول منهج الإمام في الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين، وهو جانب مهم لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه، فأظن – والله أعلم – أن البحث جديد في بابه وعنوانه، وهو أحق أن يفرد بالدراسة وفاء بعلم الإمام الأشعري، واعترافاً بفضله، وجميل صنيعه .

منهج البحث وحدوده:

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي والاستنباطي والتحليلي من خلال استقراء كلام الإمام الأشعري من كتبه، والتماس أقوال المحققين الذي سبروا آراءه، وحققوا مذهبه مع تحليل موجز لها؛ وذلك سعياً في بيان منهج الإمام في الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين، وهذا فيه من المشقة ما لا يخفى؛ ولذا كان الاقتصار على منهج الإمام في هذا الجانب بحيث لا يتشعب الحديث عن جوانب أخرى ليس محلها هنا، فاسأل الله – عز وجل – التوفيق والقبول .

خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة ، وثلاثة مباحث , وخاتمة , وفهارس .

- **المقدمة**: تضمنت الحديث عن أهمية الموضوع، وسبب اختياري له، والدراسات السابقة ومنهج البحث وحدوده .
- **المبحث الأول**: ترجمة موجزة للإمام الأشعري، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اسمه، وكنيته ولقبه، مولده، وشيوخه وتلامذته، ووفاته .

المطلب الثاني: منعطفات مهمة في حياة الإمام الأشعري .

المطلب الثالث: أهم آثاره ومؤلفاته العلمية .

- **المبحث الثاني**: جهود الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أهم جهود الإمام الأشعري في الرد على الملحدين والمخالفين من خلال استخدام النصوص القرآنية .

المطلب الثاني: السمات العامة في منهج الإمام الأشعري من خلال الاستدلال بالنص القرآني .

- **المبحث الثالث**: أثر منهج الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني على واقع الأمة الإسلامية
- **الخاتمة**: تتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث .
- **الفهارس**: تتضمن فهرس ثبت أهم المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام الأشعري

المطلب الأول

اسمه، وكنيته ولقبه، ومولده، وشيوخه وتلامذته، ووفاته

اسمه ونسبه: هو الإمام العلامة، البحر الفهَّامة، التقي البر، ناصر السنة، علم الدين، وشعار المسلمين: علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأَشعري الصحابي الجليل المشهور(١)، "هذه النسبة إِلَى "أشعر" قبيلة من اليمن، ونسلهم إلى الآن باق، وهم عرب يسكنون قريباً من زبيد، والأشعر هو بنت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وإنما قيل له الأشعر؛ لأَن أمه ولدته والشعر على بدنه"(٢)، فالإمام بذلك ينتمي لأسرة عربية خالصة لها فضلها ومكانتها بين العرب .

كنيته ولقبه: كان الإمام يُكنى بأبي الحسن، وأما لقبه فلم أقف على لقب له في التراجم التي اطلعت عليها إلا أن ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) ذكر أنه نُودي عليه في جنازته ب "ناصر الدين"(٣)، وعلى هذا يمكننا

---

(١) ينظر: الأنساب للسمعاني ص ٢٦٧، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية، الأولى، ١٣٨٢هـ، وطبقات الشافعيين لابن كثير ١/ ٢٠٨، ط: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٣هـ، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٩٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ١ / ٦٤، ط: دار صادر، بيروت، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ٢/ ٢٢٥، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٧ هـ .

(٣) ينظر: تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص١٤٧ .

القول: إن لقب الإمام هو "ناصر الدين"، وأن المسلمين في جنازته هم الذين لقبوه به، ولم يعرف بذلك في حياته؛ إذ لو عرف لنقل إلينا، كما أنه غير متداول بين كتب المؤرخين، والله أعلم .

مولده وحياته: ولد الإمام سنة "ستين ومائتين" بالبصرة الموافق لسنة "أربع وسبعين وثمانمائة" من الميلاد، كذا نص جل ما وقفت عليه من مصارد، وما عداها أوردته بصيغة التمريض(١)، ولم تقدم لنا المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة الإمام الخاصة سوى أن والده "كان سُنِّياً حديثياً أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى السَّاجِي (ت: ٣٠٧هـ) وهو إمام الفقه والحديث"(٢)، وهذا النذر اليسير يدلك على أن الإمام قد بدأ طفولته على عقائد أهل السنة كوالده الذي كان من كبار المحدثين آنذاك، وأنه تلقى في مستهل حياته ثقافة حديثية فقهية واسعة حيث كان الإمام يجلس أيام الجُمع في حلقة أبي إسحاق المروزي (ت:٣٤٠هـ) في جامع المنصور ببغداد، وكان "صاحب دعابة ومزاح كثير، وذكاء مفرط، وله أشياء حسنة، زاهداً ورعاً، قانعاً متعففاً"(٣)، يأكل من غلة ضيعة وقفها

(١) ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ١٤ / ٢٩، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٢ هـ .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ٣٥ .

(٣) ينظر: العبر في خبر من غبر للذهبي ٢ / ٢٣، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٥/ ٨٧، الناشر: مؤسسة الرسالة، الثالثة، ١٤٠٥هـ .

جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عقبه، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً، نشيطاً في أمور الآخرة رضي الله عنه[١] .

شيوخه وتلامذته: تتلمذ الإمام الأشعري على يد بعض مشايخ عصره الذين اشتهروا بالحديث والتفسير والفقه وعلم الكلام منهم: عبد الرحمن بن خلف الضَّبِّي (ت: ٢٧٩هـ)، وأبو علي الجبائي (ت: ٣٠٣هـ)، وأبو خليفة الفضل بن الحُبَاب الجُمَحِي: مسند العصر، وكان محدثاً متقناً، ثبتاً إخبارياً (ت: ٣٠٥هـ)، والقاضي ابن سريج الشافعي (ت: ٣٠٦هـ)، وزكريا السَّاجي، ومحمد بن يعقوب المقري (ت:٣٣٠هـ)، وأبو إسحاق المروزي الفقيه الشافعي (ت:٣٤٠هـ) [٢] .

وأما تلامذته: فهم كثر، وقد اهتم ابن عساكر بذكر تلامذته، والآخذين منه، واستدل بذلك على عظم منزلته، وجلالة قدره، وقد قسمهم خمس طبقات، بدأ فيها بأصحابه الذين أخذوا منه وأدركوه ممن قال بقوله أَو تعلم منه ثم أتبع ذلك بمن أخذ عن تلامذة الإمام، واعتبرهم الطبقة الثانية وهكذا إلى أن وصل إلى الطبقة الخامسة، وسأكتفي هنا بذكر بعض الآخذين عن الأشعري نفسه وهم: أبو عبد الله بن مجاهد البَصري المتكلم، وأبو الحسن البَاهِلِي البَصري (ت: ٣٧٠هـ)، وأبو الحسين بُنْدار بن الحسين الشيرازي الصوفي (ت: ٣٥٣هـ)، وأبو بكر القفال الشاشِي الفقيه

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد وذيوله ١١/ ٣٤٦، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٧ هـ، والعبر في خبر من غبر ٢/ ٢٣، بيروت، وتبيين كذب المفتري ص١٤٢ .

(٢) ينظر: طبقات الشافعيين ١ / ٢٠٩، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ٢٤ / ١٥٤، ت: عمر عبد السلام التدمري، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الثانية، ١٤١٣ هـ .

(ت: ٣٦٥هـ)، وأبو زيد المرزوي (ت: ٣٧١هـ)، وأبو عبد الله بن خفِيف الشيرازي الصوفِي (ت: ٣٧١هـ)، وأبو بكر الجِرجَاني المعروف بالإسماعيلي (ت: ٣٧١هـ)، وأبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري (ت: ٣٨٠هـ)، وأبو محمد القرشِي الزهري (ت: ٣٨٢هـ)، وأبو بكر البُخاري المعروف بالأودني الفقيه (ت: ٣٨٥هـ)، وأبو عبد الرحمن الشُّرُوطِي الجِرجاني (ت: ٣٨٩هـ)[١] وغيرهم من أئمة لا يحصيهم إلا الله سبحانه .

وفاته: بعد حياة حافلة ومسيرة عطاء دامت "أربعةً وستين عاماً" توفي الإمام فجأة ببغداد سنة "أَربع وعشرين وثلاثمائة" الموافق عام "ست وثلاثين وتسعمائة" من الميلاد[٢]، ودفن بين الكَرخ وباب البصرة[٣] .

---

(١) ينظر: تبيين كذب المفتري ص ١٧٧: ٢٠٢ .

(٢) المذكور هنا في تاريخ وفاة الإمام هو ما رجحه غير واحد من العلماء، ونصوا على أنه الأصح . ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣/ ٢٨٤، ط: دار صادر، بيروت، ١٩٠٠ م، والوافي بالوفيات للصفدي ٢٠/ ١٣٧، ط: دار إحياء التراث، بيروت،١٤٢٠هـ، والعبر في خبر من غبر ٢/ ٢٣ .

(٣) اسم المكان الذي دفن فيه الإمام «مشرعة الروايا»: في تربة إلى جانبها مسجد، وبالقرب منها حمام، وهي عن يسار المار من السوق إلى دِجْلَة، و "مشرعة الروايا": تقع بدرب الشعِير من الجانب الغربي ببغداد قربية من المدينة المدوَّرة التي بناها أبو جعفر المنصور، وكانت تُرْفَأ إليها سُفن المَوصل والبصرة . ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٤/ ١٩٠، ط: دار الفكر، ١٤١٥هـ، وتاريخ بغداد ١١/ ٣٤٦، ومعجم البلدان للحموي ١/ ٣٠٨، ط: دار صادر، بيروت، الثانية، ١٩٩٥ م .

المطلب الثاني

منعطفات مهمة في حياة الإمام الأشعري

التحق الإمام الأشعري بالمعتزلة مبكراً، ودرس على يد أبي علي الجبائي (ت: ٣٠٣هـ)، وبلغ مبلغاً عظيماً في الاعتزال، وفي تلك المرحلة ألَّف كتباً كثيرة نافح بها عن الفكر المعتزلي وناصره، وظل على ذلك حتى بلغ الأربعين من عُمُره، ثم اعتزل الناس، ومكث في بيته خمسة عشر يوماً، وبعد تفكيرٍ عميقٍ تكافأت عنده الأدلة ولم يترجح عنده حق على باطلٍ ولا باطل على حقٍ، فاستهدى الله – تعالى– فهداه، وخرج ورقي كرسياً في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ليعلن على مرأى ومسمع من الناس تبرأه من الاعتزال، وأنه عازم للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم، ومنخلع من عقائدهم كما ينخلع من ثوبه هذا، ثم انخلع من ثوب كان عليه، ورمي به إلى الناس، ودفع إليهم كتبه فلمَّا قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة أخذوا بِمَا فيها وانتحلوه، واعتقدوا تقدمه، واتخذوه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه[١] .

وقد ذكر ثلة من الباحثين أن الإمام الأشعري قد تأرجح في فكره العقدي عبر مراحل ثلاث:

الأولى: مرحلة الاعتزال التي دامت أربعين سنة: حيث مات والده وهو في سن العاشرة، وتزوجت أمه من الجبائي، ومن ثم تأثر به الإمام، وحذا حذوه حتى أنه كان ينيبه عنه في المجالس والدروس[٢]، وبذلك اتجه

---

(١) ينظر: تبيين كذب المفتري ص ٣٩: ٤٠، والوافي بالوفيات ٢٠/ ١٣٧، ١٣٨ .

(٢) ينظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، عبد القادر محيي الدين الحنفي ٣٥٤/١ .

الإمام الأشعري منذ حداثة سنه إلى الاعتزال للعلاقة التي نشأت بينه وبين الجبائي، ولم يستطع وقتئذٍ – وهو صغير السن – أن يسير على نهج والده .

الثانية: مرحلة اتباعه لعبد الله بن سعيد بن كُلَّاب (ت: ٢٤١هـ = ٨٥٤م) .

الثالثة: مرحلة رجوعه إلى عقيدة السلف، والتي ظل عليها حتى لقي الله تعالى[١] .

لكن هذه المراحل الثلاث قد عارض فيها بعض العلماء المعاصرين منهم: العَلَّامة أ.د/ محمد أبو عاصي قائلاً: (إن الإمام الأشعري علم من أعلام المسلمين، يشار إليه بالبنان، وتعقد على كلماته الخناصر، فهو ليس بنكرةٍ من الناس، ولا برجلٍ جهولٍ يخفى على الناس أمره لا سيما في قضية مثل هذه، فلو كان الأمر كما جاء أنه مر بثلاث مراحل في حياته فلا بُدَّ أن يكون المؤرخون قد ذكروا هذا وبينوه، ولكان – حتماً – قد اشتهر عنه وانتشر كما ذاع أمر رجوعه عن الاعتزال، فهل ذكر أحد من المؤرخين شيئاً عن رجوع الإمام عن منهج عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب؟! عند الرجوع إلى كتب التاريخ لا نجد أي إشارة إلى هذا لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، بل نجد المؤرخين كلهم مطبقين على أن الإمام بعد هجره للاعتزال رجع إلى مذهب السلف الصالح[٢]، وصنف على طريقتهم كتبه، وهل يعقل

---

(١) ينظر: أهل السنة الأشاعرة شهادة علماء الأمة وأدلتهم، حمد السنان، فوزي العنجري ص ٤٣: ٤٦، ط: دار الضياء .

(٢) «مصطلح السلف»: يطلق على أهل القرون الثلاثة الأولى من عمر هذه الأمة الإسلامية وهم "الصحابة والتابعون وأتباع التابعين"، أما في العصر الحديث ==

أن إماماً بقامة الإمام الأشعري يرجع عن مذهبٍ اعتنقه بعد إعلان على الملأ، هل يعقل أن يرجع عن هذا المذهب الذي اختاره بعد تحقيق وتدقيق ومحاسبات إلى مذهب آخر سراً دون أن يعلم عنه أحد من الناس ولا ينقله عنه تلاميذه، فالحق الذي لا مرية فيه أنهما مرحلتان اثنتان: الأولى: مرحلة الاعتزال، الثانية: عدوله عن الاعتزال إلى متابعة طريقة أهل السنة التي صار فيها إماماً، وظل يؤلف ويدرس ويحقق حتى لقي الله عليها)[1] أ.هـ .

==

فيختلف هذا المفهوم اختلافاً جذرياً عن سابقه مشرباً وفكراً فيما يعرف ب "السلفية"، وله عوامل أدت إلى ظهوره وانتشاره حيث يعبر عن شخصيتهم وكينونتهم الجماعية أو الحزبية، أو الانتساب إلى الإمام ابن تيمية ثم مروراً ب "الوهابية" . ينظر: السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، أ.د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص ٩، ٢٢٢، ط: دار الفكر، دمشق، سورية، الأولى، ١٤٠٨ هـ .

(١) أشعري أنا ..... عقيدة أهل السنة والجماعة، تأليف: أ.د/ محمد سالم أبو عاصي ص ٣٦: ٣٨ باختصار .

المطلب الثالث

أهم آثاره ومؤلفاته العلمية

للإمام الأشعري مصنفات متنوعة قال عنها الإمام ابن حزم أنها "بلغت خمسة وخمسين مصنفاً"[١]، وتابعه في ذلك الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)[٢]، وابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) [٣]، وابن العماد (ت: ١٠٨٩هـ)[٤]، لكن رد ابن عساكر هذا حيث قال: "قد ترك من عدد مصنفاته أَكثر من النصف، وذكر ابن فُورك (ت: ٤٠٦هـ) مسميات تزيد على الضعف، ثم ذكر ابن عساكر بعد ذلك عن أَبي المعالي بن عبد الملك القاضي (ت: ٤٧٨هـ) أَنه سمع من يَثِق به يذكر أَنه رأى تراجم مصنفاته تزيد على مائتين وثلاثمائة مصَنف[٥] .

قال السبكي (ت: ٧٧١هـ): (ابن حزم نص على مقدار ما وقف عليه فى بلاد المغرب)[٦]أ.هـ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٥٩، ت: د. محمود محمد الطناحي، ط: دار هجر، الثانية، ١٤١٣هـ .

(٢) ينظر: تاريخ بغداد وذيوله ١١/ ٣٤٦ .

(٣) ينظر: البداية والنهاية ١١ / ١٨٧، الناشر: دار الفكر عام النشر: ١٤٠٧ هـ .

(٤) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤ / ١٣٠، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الأولى، ١٤٠٦ هـ .

(٥) تبيين كذب المفتري ص ٩٢، ١٣٦.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٥٩، ٣٦٠ .

وأوفى المصادر التي أوضحت أسماء تلك المؤلفات "التبيين" لابن عساكر حيث ذكر له أكثر من "تسعين مصنفاً"، وقسمها إلى قسمين: الأول: إلى سنة (٣٢٠هـ)، والثاني: إلى سنة وفاته (٣٢٤هـ)[١] .

قلت: أَيَّاً ما كان القول في عدد مؤلفاته، فمن المؤكد أن الإمام الأشعري ترك مصنفات كثيرة جليلة القدر، عظيمة النفع، وجلها يدور حول رد شُبه المخالفين، وإبطال ترهات الزائغين، وهذا يدل على سعة علمه، وينبىء الجاهل عن غزارة فهمه، لكن هذا التراث الهائل لم يصلنا منه سوى القليل الذي لم يتجاوز أصابع اليدين، ومن أشهر مصنفاته:

(١) الإبانة عن أصول الديانة "مطبوع" . (٢) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع "مطبوع" .

(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين "مطبوع" .

(٤) اختلاف الناس في الأسماء والأحكام والخاص والعام .

(٥) النوادر في دقائق الكلام . (٦) القياس يخص ظاهر القرآن .

(٧) رسالة استحسان الخوض في علم الكلام "مطبوع" .

(٨) رسالة في الإيمان "مطبوع" .

(٩) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب "مطبوع" .

(١٠) الحث على البحث .

***هل للإمام الأشعري تفسير مستقل موجود بين أيدينا الآن**:

ذكر البعض أن الإمام الأشعري كان له تفسير موسوم باسم: "تفسير القرآن، والرد على من خالف البيان من أهل الإفك والبهتان" وهو

(١) تبيين كذب المفتري ص ١٢٨: ١٤٠ .

تفسير حافل اعتبره ابن العربي (ت: ٥٤٣هـ) من أوسع التفاسير، وذكر أنه يقع في "خمسمائة مجلد"، لكنه فُقد كما فُقد جل تراثه العلمي، ويشير ابن العربي إلى قصة إحراق هذا التفسير بإيعازٍ من الصاحب بن عَبَّاد (ت: ٣٨٥ هـ)، ثم يذكر أن النسخة التي احترقت هي النسخة الوحيدة التي كانت في دار الخلافة ببغداد غير أنه يستدرك فيقول: "إنه رأى الأستاذ الزاهد الإمام ابن فُورك يحكي عن هذا التفسير، فهل وقع على بعضه أم أخذه من أفواه الرجال؟!"[١] .

وهناك نصوص لبعض أهل العلم تبين لنا مقصد الإمام من كتابة تفسيره هذا، وقد ذكر ابن عساكر ذلك عن الإمام الأشعري حيث قال: (وألفنا كتاب تفسير القرآن، رددنا فيه على الجبائي والبلخي ما حرفا من تأويله)[٢]، ولا يستبعد أن يكون الإمام قد وقف على الآيات المتشابهة والمُشْكِلة التي تأوَّلها هؤلاء بما وسس لهم شيطانهم معتقدين أنه التأويل الحق؛ إذ تفسيره هذا كان يقع في سبعين مجلداً[٣]، وذكر السبكي عن الإمام الأشعري أنه قد روى عن جمع من العلماء والمحدثين في تفسيره «كزكريا الساجي، وأبي خليفة الجمحي، وسَهل بن نوح، ومحمد بن يعقوب المقبري، وعبد الرحمن بن خلف الضبي البصريين وأكثر عنهم فى تفسيره، وتفسيره كتاب حافل جامع، قال الذهبي: "إنه لما صنفه كان على

(١) العواصم من القواصم ص ٧٢، ت: د/ عمار طالبي، ط: مكتبة دار التراث، القاهرة، الأولى ١٩٩٧م .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ١٣٤ .

(٣) ينظر: الوافي بالوفيات ٢٠ / ١٣٨، وعدد المجلدات يختلف باختلاف الخط والنسخ كما هو معروف وشائع .

الاعتزال"، قلت: وليس الأمر كذلك فقد وقفت على الجزء الأول منه وكله رد على المعتزلة، وتبيين لفساد تأويلاتهم، وكثرة تحريفهم، وفى مقدمة تفسيره من ذلك ما يقضى ناظره العجب منه»[١] .

لكن وقع إشكال عند العلماء حيث ورد تسمية أخرى لهذا التفسير باسم "المختزن في علوم القرآن"[٢] قال عنه ابن عساكر: (وكان ألف في القرآن كتابه الملقب ب"المختزن" ذكر لي بعض أصحابنا أَنه رأى منه طرفاً، وكان بلغ سورة الكهف، وقد انتهي مائَة كتاب، ولم يترك آية تعلق بها بدعي إلا بطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الحق، وبين المُجمل، وشرح المُشكل، ومن وقف على تواليفه رأى أَن الله قد أمده بمواد توفيقه، وأقامه لنصرة الحق، والذب عن طريقه)[٣] أ.هـ .

ويبدو– والله أعلم – أنهما كتابان كل واحد منهما قد تناول فناً من فنون العلم أحدهما في "ضروب الكلام"، والآخر في "تفسير القرآن"، وليس كما ظن بعض المؤلفين أنهما كتاب واحد، وقد ذكر ابن عساكر عن الإمام الأشعري ما نصه: (وألفنا كتاباً في ضروب من الكلام سميناه: "المختزن" ذكرنا فيه مسائل للمخالفين لم يسألونا عنها، ولا سطروها في كتبهم، ولم يتجهوا للسؤال، وأجبنا عنها بما وفقنا الله له)[٤] أ.هـ .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٥٥، ٣٥٦ .

(٢) طبقات المفسرين للداوودي ١ / ٣٩٨ .

(٣) تبيين كذب المفتري ص ١١٧ .

(٤) تبيين كذب المفتري ص ١٣٣ .

المبحث الثاني

جهود الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني

المطلب الأول

أهم جهود الإمام الأشعري في الرد على الملحدين والمخالفين من خلال استخدام النصوص القرآنية

إن المستقرىء لمصنفات الإمام الأشعري يجد أنه قد قام بالرد على الملحدين والمخالفين الذين أنكروا عدداً من القضايا المتفق عليها بين جمهور العلماء، وراح يثبت بطلان مذاهبهم بالأدلة النقلية والعقلية التي استنبطها من كتاب الله – عز وجل – وسنة نبيه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وفيما يلي تفصيل ذلك، وبيان كيف أن الإمام استدل بالنص القرآني في الرد على هؤلاء ونظرائهم:

أولاً: جهود الإمام الأشعري في الرد على الملحدين من خلال إثبات وتقرير قضية "وجود الله عز وجل":

لقد رأى الإمام الأشعري أن هذا الكون كتاب مقروء ناطق بدلائل الربوبية، وبدأ يتخذ من آيات الله الكونية منطلقاً لمنهجه في الاستدلال على وجود الخالق، فسلك الإمام في إثبات وجود الخالق طريقتين[(١)]: الأولى: النظر في الأنفس والآفاق، الثانية: الحدوث والتغير، وقد نص على ذلك الإمام الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ) فقال: (وربما سلك أبو الحسن

(١) على اعتبار أن المنقول عن الإمام الأشعري أن "أول الواجبات العلم بالله تعالى" تفريعاً على القول بوجوب معرفة الله سبحانه . ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ١ / ٧٠، ط: دار الكتبي، الأولى، ١٤١٤هـ .

الأشعري طريقاً في إثبات حدوث الإنسان، وتكونه من نطفة أمشاج، وتقلبه في أطوار الخلقة، وأكوار الفطرة، ولسنا نشك في أنه ما غيَّر ذاته، ولا بدل صفاته ولا الأبوان ولا الطبيعة، فتعين احتياجه إلى صانع قديم قادر عليم)[1] أ.هـ

ويمكننا أن نستشف طريق «النظر في الأنفس» كدليل على "الحدوث" من قول الإمام: (إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن الخلق صانعاً صنعه ومدبراً دبره؟ قيل له الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم علقة ثم لحماً ودماً وعظماً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال؛ لأنا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعاً ولا بصراً، ولا أن يخلق لنفسه جارحة، يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز؛ لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في الكمال عليه أقدر، وما عجز عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز، ورأيناه طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم؛ لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك؛ فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأن له ناقلاً نقله من حال إلى حال، ودبره على ما هو عليه؛ لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر، وإذا كان تحول النطفة علقة، ثم مضغة، ثم لحماً ودماً وعظماً، أعظم في الأعجوبة، كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ

(١) نهاية الأقدام في علم الكلام ص ٩، ١٠ .

الْخَالِقُونَ﴾[١]، فما استطاعوا أن يقولوا بحجة إنهم يخلقون ما يمنون مع تمنيهم الولد فلا يكون ومع كراهتهم له فيكون، وقد قال الله منبهاً لخلقه على وحدانيته: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٢]، بين لهم عجزهم وفقرهم إلى صانع صنعهم، ومدبر دبرهم)[٣] أ.هـ .

قلت: تأمل براعة الإمام الأشعري العقلية في الاستدلال بالنص القرآني، وطريقة طرحه للأسئلة، والإجابة عليها عند سوق الأدلة العقلية لإثبات وجود الله سبحانه، فهو أحياناً يستخدم النص القرآني صراحة، وتارة يشير إليه، فلا يخرج عن منطوقه، فكلام الإمام المذكور قد دلت عليه آيات القرآن كقوله تعالى:﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ مَا نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَن يُتَوَفَّى وَمِنْكُم مَن يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾[٤]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[٥]، وهو ما نصت عليه أيضاً أحاديث المعصوم – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومنها ما رواه عبد الله قال: حدثنا رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ

---

(١) [سورة الواقعة: ٥٨، ٥٩] .

(٢) [سورة الذاريات: ٢١] .

(٣) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع للإمام أبي الحسن الأشعري ص ١٧: ١٩ .

(٤) [سورة الحج: ٥] .

(٥) [سورة الروم: ٥٤] .

يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ»[١]، ثم جاء العلم الحديث وأثبت صحة هذه الأخبار على أيدى المتخصصين من غير المسلمين[٢]، ولله در الناظم:

فَانْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ ثُمَّ انْتَقِلِ ∴ لِلْعَالَمِ العُلوِيِّ ثُمَّ السُّفْلِي
تَجِدْ بِهِ صُنْعًا بَدِيعَ الْحِكَمِ ∴ لكِنْ بِهِ قَامَ دَلِيلُ الْعَدَمِ
وَكُلُّ مَا جَازَ عَلَيْهِ الْعَدَمُ ∴ عَلَيْهِ قَطْعًا يَسْتَحِيلُ الْقِدَمُ[٣]

ونجد الإمام الأشعري في موضع آخر قد لخص ما سبق ووضحه فقال: (ونبههم على حدوثهم بما فيهم من اختلاف الصور والهيئات وغير ذلك من اختلاف اللغات، وكشف لهم عن طريق معرفة الفاعل لهم بما فيهم وفي غيرهم، بما يقتضي وجوده يدل على إرادته وتدبيره حيث قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤]، فنبههم – عز وجل– بتقلبهم في سائر الهيئات التي كانوا عليها بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٤/ ١١١ برقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/ ٢٠٣٦ برقم ٢٦٤٣ .

(٢) ينظر: معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل، عبد الوهاب عبد الرازق الراوي ص ٣٩ ط: دار العلوم، الأولى ١٤٢٩هـ .

(٣) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ص ٤٧، الناشر: دار الكتب العلمية، الثانية، ١٤٢٤ هـ .

(٤) [سورة الذاريات: ٢١] .

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١]، وهذا من أوضح ما يقتضي الدلالة على حدث الإنسان، ووجود المحدث له من قبل أن العلم قد أحاط بأن كل متغير لا يكون قديماً، وذلك أن تغيره يقتضي مفارقة حال كان عليها قبل تغيره وكونه قديماً ينفي تلك الحال، فإذا حصل متغيراً بما ذكرناه من الهيئات التي لم يكن قبل تغيره عليها دل ذلك على حدوثها، وحدوث الهيئة التي كان عليها قبل حدوثها؛ إذ لو كانت قديمة لما جاز عدمها، وذلك أن القديم لا يجوز عدمه)[٢] أ.هـ .

إن كلام الإمام المنصوص عليه آنفاً كان في "حدوث الإنسان" كأمارة واضحة على وجود الخالق، لم يرتكز فقط على الدليل العقلي بل أضاف إليه النص القرآني رابطاً بينهما بأسلوب لطيف وكأنه يشرح الدليل العقلي من خلال فهمه للنص، فصارت الآية كأنها الدالة والمرشد إلى المطلوب العقلي .

أما «طريق النظر في الآفاق» فأشار الإمام إليه بقوله: (ثم زادهم تعالى في ذلك بياناً بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾[٣] فدلهم بحركة الأفلاك على المقدار الذي بالخلق الحاجة إليه في مصالحهم التي لا يخفى مواقع انتفاعهم بها كالليل الذي جعل لسكونهم، ولتبريد ما زاد عليهم من حر الشمس في زروعهم وثمارهم، والنهار الذي جعل لانتشارهم وتصرفهم في معايشهم على القدر الذي يحتملونه في ذلك، ولو كان دهرهم كله ليلاً لأضر بهم ما

---

(١) [سورة المؤمنون: ١٢: ١٤] .

(٢) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ٨١: ٨٣ .

(٣) [سورة آل عمران: ١٩٠] .

فيه من الظلمة التي تقطعهم عن التصرف في مصالحهم، وتحول بينهم وبين إدراك منافعهم، وكذلك لو كان دهرهم كله نهاراً لأضر بهم ذلك، ودعاهم ما فيه من الضياء إلى التصرف في طلب المعاش مع حرصهم على ذلك إلا ما لا يطيقونه، فأداهم قلة الراحة إلى عطبهم، وجعل لهم من البرد والحر فيهما مقدار ما لهم ولثمارهم ولمواشيهم من الصلاح رفقاً لهم، وجعل لون ما يحيط بهم من السماء ملاوماً لأبصارهم، ولو كان لونها على خلاف ذلك من الألوان لأفسدها .

ودلهم على حدثها بما ذكرناه من حركاتها، واختلاف هيئاتها، ودلهم على حاجتها، وحاجة الأرض، وما فيهما من الحكم على عظمتهما، وثقل أجرامهما إلى إمساكه عز وجل لهما بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[1]، فعرَّفنا تعالى أن وقوعهما لا يصح أن يكون من غيره، وأن وقوفهما لا يجوز أن يكون بغير مُوقف لهما)[2] أ.هـ .

نستخلص مما سبق أن الإمام الأشعري لم يذكر "الحدوث" مجرداً كدليلٍ على إثبات المُحدِث بل نلمح أنه ذكر أمثلة يسير فيها "الحدوث" في طريقٍ هادفٍ له غاية مما يدل على أنه يستصحب "دليل العناية والرعاية أو دليل الاختراع والتناسق" مع "دليل الحدوث" جنباً إلى جنبٍ في إثبات وجود الخالق، و"دليل الحدوث" الذي قال به الإمام يعد في ضوء معطيات العلم الحديث من أقوى الأدلة على وجود الله – عز وجل – بعد أن خرجت مقدمته "العالم حادث" من عداد الأمور النظرية، وأضحت من اليقينيات

---

(١) [سورة فاطر: ٤١] .

(٢) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ٨٦: ٨٨ باختصارٍ .

التي برهن عليها العلم المعاصر وفق قانون الطاقة المتاحة حيث أثبت العلم أن الكون متناهٍ حجماً وزمناً[١] .

كما أن الإمام الأشعري قد استنبط بعض الأدلة العقلية الأخرى من القرآن الكريم في رده على هؤلاء الملحدين المنكرين للخالق، ومن تلك الأدلة: «دليل التمانع»[٢] الذي ينتج عنه إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العلمية فيقودنا ذلك إلى إثبات وجود الله – سبحانه – يقول الإمام: (فإن قال قائل: لم قلتم إن صانع الأشياء واحد؟ قيل له: لأن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحداً منهما؛ لأن أحدهما إذا أراد أن يحيي إنساناً، وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعاً أو لا يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعاً؛ لأنه يستحيل أن يكون الجسم حياً ميتاً في حال واحدة، وإن لم يتم مرادهما جميعاً وجب عجزهما، والعاجز لا يكون إلهاً ولا قديماً، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلهاً ولا قديماً، فدل ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد؛ وقد قال الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣] فهذا معنى احتجاجنا آنفاً)[٤] أ.هـ .

---

(١) ينظر: آيات الصفات بين الأشاعرة وابن تيمية، تأليف: أ.د/ محمد عبد الرحيم البيومي ص ٥٢، ٥٧ .

(٢) خلاصته: "امتناع الإمكان والوقوع عند التسليم بفرض من الفروض" . ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ٢٥، ٢٦، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤ / ٦٣ .

(٣) [سورة الأنبياء: ٢٢] .

(٤) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٢٠: ٢١ .

ونجد الإمام الأشعري ينص على ورود «دليل التمانع» مجملاً في كتاب ربنا فيقول: (وأما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضاً من الكتاب قال الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١] وهذا الكلام موجَزٌ منبّهٌ على الحجة بأنه واحد لا شريك له, وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد ب "التمانع والتغالب" فإنما مرجِعه إلى هذه الآية, وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢] وإلى قوله: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ﴾[٣]، وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجِعه إلى هذه الآيات التي ذكرناها وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن)[٤] أ.هـ.

قلت: وبهذا يتبين أن الإمام الأشعري قد اتخذ من النص القرآني وسيلة في جداله ومحاوراته في الرد على المنكرين لقضية "الوجود"، وكان ذلك في أسلوب مقنع وبسيط، ولم ينجرف بعيداً عنه، فهو أراد أن يلفت الأنظار الغافلة، ويستجيش العواطف الكامنة لدى الفطر الإنسانية، فالأدلة التي أوردها الإمام لا يشكك في صحتها عاقل، أو يرفضها باحث عن الحقيقة، وهذا يرينا سهولة ويسر الاستنتاج العقلي من مشهد قرآني من أقرب سبيل، ومن هنا يتأكد لنا أن المنهج الأشعري قائم على فهم النصوص القرآنية ذات الصلة بموضع الاستشهاد وليس كغيره ممن يجعل

---

(١) [سورة الأنبياء: ٢٢] .

(٢) [سورة المؤمنون: ٩١] .

(٣) [سورة الرعد: ١٦] .

(٤) رسالة في إستحسان الخوض في علم الكلام لأبي الحسن الأشعري ص ٨٩ .

الدليل العقلي هو العمدة في المسألة غير ناظرٍ إلى ما تؤديه الآيات في ذلك مما خالطه بعض اللبس والغموض، وكأنني بالإمام يتحدث إلى شرائح متنوعة، وتعرض عليه عقول متفاوتة في الفهم والإدراك، فما أحوجنا اليوم إلى هذا المنهج القرآني، واستخدام تلك الوسائل والأساليب في الحجاج العقلي حتى نقوي الإيمان في قلوب الشباب خاصة في ظل سيلان حملات الإلحاد المتعاقبة، وموجات التشكيك المتلاحقة، فعقولهم الآن قد أصبحت لا يناسبها بعض الردود الخطابية، والمقالات الوعظية الرنانة .

كما نبه الإمام الأشعري العلماء، وفتح عيونهم على طريق آخر لإثبات وجود الخالق ألا وهو «طريق المعجزة»؛ لأن الأنبياء قد أجرى الله على أيديهم معجزات تدل على صحة دعواهم، وصدقهم فيما بلغوا عن ربهم، فهو الذي أوجدهم من العدم، ومنحهم النبوة يقول الإمام: (اعلموا – أرشدكم الله – أن ما دل على صدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المعجزات بعد تنبيه لسائر المكلفين على حدثهم ووجود المحدث لهم قد أوجب صحة أخباره، ودل على أن ما أتى به من الكتاب والسنة من عند الله، وإذا ثبت بالآيات صدقه، فقد علم صحة كل ما أخبره به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، وصارت أخباره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أدلة على صحة سائر ما دعانا إليه من الأمور الغائبة عن حواسنا وصفات فعله، وصار خبره عن ذلك سبيلاً إلى إدراكه، وطريقاً إلى العلم بحقيقته)[١] أ.هـ .

وهكذا رفض الإمام الأشعري دليل المتكلمين القائم على القول ب "الجوهر والعرض"، ودليل الفلاسفة القائل ب "الممكن والواجب"، ورد قولهم

(١) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١٠٤، ١٠٥ .

ب "الطبع أو المصادفة"[١] حيث قال: (ثم نبهنا على فساد قول الفلاسفة بالطبائع، وما يدعونه من فعل الأرض والماء والنار والهواء في الأشجار وما يخرج منها من سائر الثمار بقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾[٢]، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]، ثم نبه تعالى خلقه على أنه واحد باتساق أفعاله وترتيبها، وأنه تعالى لا شريك له فيها بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤]، ووجه الفساد بذلك، لو كان إلهان ما اتسق أمرهما على نظام، ولا يتم على إحكام، وكان لا بد أن يلحقهما العجز، أو يلحق أحدهما عند التمانع في الأفعال، والقدرة على ذلك ... إلخ)[٥] أ.هـ .

وكأني بالإمام الأشعري يقف معارضاً بهذا الاستدلال القرآني لطوائف أخرى قد قررت "مسألة الألوهية" وما يتعلق بها على وجه آخر، فتراه بهذه الصياغة – السابقة– يعارض بعض الفلاسفة أيضاً القائلين ب "قدم العالم"، كما يعارض الدهريين الذين يعطلون هذا العالم أن يكون له مدبر حكيم، وفي الوقت ذاته يرد على "الثنوية" الذين قالوا بإله للنور وإله للظلمة وغير ذلك، كما أنه يشير إلى خطأ "المجسمة والمشبهة" الذين

(١) ينظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ٨٣، ١٠٦، ١٠٩، ١١٨ .
(٢) [سورة الرعد: ٤] .
(٣) [سورة الرعد: ٤] .
(٤) [سورة الأنبياء: ٢٢] .
(٥) ينظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ٨٩ .

أثبتوا الصفات على وجه لا يليق بذاته المقدسة[١]، ولعل كتبه المفقودة في هذا الجانب مثل: "الفُصُول فى الرد على الملحدين"، و "مقالات الملحدين"[٢] لو كانت بين أيدينا اليوم لكشفت لنا اللثام عن سيل عارم من الشبهات المثارة على الساحة الآن .

ثانياً: أبرز جهود الإمام الأشعري في الرد على "الفرق المنحرفة" التي تأولت الآيات القرآنية حسب معتقدها:

إن الإمام الأشعري ظل كالطود الأشم والجبل الشامخ ينافح عن العقيدة الإسلامية في وسط أمواج عاتية تحاول النيل من الإسلام وأهله، وقد صرح في غير موضع من مؤلفاته أنه يدين بعقيدة السلف الصالح – كما سيأتيك– ومن ثم شرع في الرد على أهل الزيغ والبدع مفنداً أقاويلهم ومعتقداتهم الفاسدة في أسلوب يشفي الوجدان، ويهدي الحيران، وكان عمدته الاستدلال بالمنقول من الكتاب والسنة، ثم شفع ذلك دلائل المعقول التي توافق المنقول، فما العقل إلا أداة لخدمة النقل، فهو شارح وموضح للنقل إن احتاج الأمر ذلك، وها أنا أجلي بعض جهوده في الرد على أهل الضلال والتي كان سلاحه الأول فيها كتاب ربنا – سبحانه – بناء على التأويل الفاسد الذي نحوه هؤلاء وفي ذلك يقول الإمام: (فإن كثيراً من الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم

(١) ينظر: العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها، محمد عبد الستار نصار ص ٢٨٩، ط: دار الطباعة المحمدية .

(٢) ينظر: تبيين كذب المفتري ص ١٢٨، ١٣١ .

ينزل به الله سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ولا عن السلف المتقدمين)[١] أ.هـ .

***جهود الإمام الأشعري في مسألة " خلق أفعال العباد"**:

إن الآيات القرآنية التي تحدثت عن "أفعال العباد" والتي ينص بعضها على إثبات خلق الفعل لله – تعالى –، وما في بعضها الآخر من نسبة الفعل للعباد كان للإمام الأشعري أسلوب فريد في حسن توجيهها، ودفع هذا التعارض، وإزالة هذا التناقض الوارد عليها حيث أتى على معظم الإشكالات التي يوهم ظاهرها نسبة خلق الفعل إلى الإنسان، وصاغ ذلك في مسلمة واضحة هي أنه فرق بين خلق الفعل أي أسبابه ودواعيه وآثاره، وبين المباشرة له وكسبه أو اكتسابه بما يحفظ لكل من الكمال الإلهي وتمام قدرته حقها، وما يحفظ على الإنسان إرادته وحريته في تكييف الفعل وتلوينه، وقد ألف الإمام كتاباً في "خلق الأعمال" نقض فيه اعتلالات المعتزلة والقدرية في "خلق الأعمال"، وكشف عن تمويههم في ذلك، وألف كتاباً كبيراً في "الاستطاعة على المعتزلة" نقض فيه استدلالاتهم على أَنها قبل الفعل ومسائلهم وجواباتهم[٢] .

يقول الإمام مستدلاً بالنص القرآني في تلك المسألة: (إن قال قائل: لم زعمتم أن أكساب العباد مخلوقة لله تعالى؟ قيل له: قلنا ذلك لأن الله قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣] وقال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٤ .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ١٢٩ .

(٣) [سورة الصافات: ٩٦] .

يَعْمَلُونَ﴾[١]، فلما كان الجزاء واقعاً على أعمالهم كان الخالق لأعمالهم، فإن قال: أفليس الله قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[٢] وعنى الأصنام التي نحتوها، فما أنكرتم أن يكون قوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣] أراد الأصنام التي عملوها؟ قيل له: خطأ ما ظننته؛ لأن الأصنام منحوتة لهم في الحقيقة فرجع الله بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[٤] إليها، وليست الخشب معمولة لهم في الحقيقة فيرجع بقوله:﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٥] إليها)[٦] أ.هـ .

وقال أيضاً: (لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة كما قال سبحانه:﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٧]، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون كما قال:﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[٨]، وقال:﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٩]، وكما

(١) [سورة السجدة: ١٧] .
(٢) [سورة الصافات: ٩٥] .
(٣) [سورة الصافات: ٩٦] .
(٤) [سورة الصافات: ٩٥] .
(٥) [سورة الصافات: ٩٦] .
(٦) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٦٩ .
(٧) [سورة الصافات: ٩٦] .
(٨) [سورة فاطر: ٣] .
(٩) [سورة النحل: ٢٠] .

قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ﴾[١]، وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ﴾[٢]، وهذا في كتاب الله كثير)[٣] أ.هـ.

قلت: الذي ذهب إليه الإمام الأشعري هو التأويل الصحيح الذي يتوافق مع ظاهر النصوص القرآنية، وهو مذهب أهل السنة[٤]، الموافق لمذهب السلف، فهو لم يخالفهم فيها ولم يخرج عما قالوه غاية ما في الأمر أن الإمام قد شرح المسألة وبسطها وإن هم أجملوا الكلام فيها يقول الإمام السبكي: (وهذه مسألة مفروغ منها، فمن أصلنا أَنه يقال لا يجب عليه شيء ولا يفعل شيئاً لشيء ابتعثه عليه بل هو مَالك الملك، ورب الأرباب لا حجر عليه له نقل عباده من الخير إِلَى الشر وَمن النفع إِلَى الضر ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[٥])[٦] أ.هـ .

بذلك تمكن الإمام الأشعري أن يوفق بين النصوص التي يوهم ظاهر التعارض دون أن يهمل شيئاً منها، وهذا إن دل فإنما يدل على غزارة علمه، وسعة أفقه، وقوة ملاحظته، وجودة قريحته، ورجاحة عقله،

---

(١) [سورة النحل: ١٧] .

(٢) [سورة الطور: ٣٥] .

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٣: ٢٤ .

(٤) أشار الناظم إلى ذلك في تحفة المريد ص ١١١، ١١٧، ١١٨ فقال:

فَخَالِقٌ لِعَبْدِهِ وَمَا عَمِلْ ∴ مُوَفِّقٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِلُ

وَعِنْدَنَا لِلْعَبْدِ كَسْبٌ كُلِّفَا ∴ بِهِ وَلكِنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فَاعْرِفَا

فَلَيْسَ مَجْبُورًا وَلاَ اخْتِيَارَا ∴ وَلَيْسَ كَلاًّ يَفْعَلُ اخْتِيَارَا

(٥) [سورة الأنبياء: ٢٣] .

(٦) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٥٧ .

كما نجد الإمام أيضاً يطيل الرد على المعتزلة في قولهم إن "الاستطاعة قبل الفعل"[١] فيستدل بالنص القرآني أيما استدلال فيقول: (واحتجوا بذلك أن الاستطاعة قبل الفعل، فبئس ما قالوا وظنوا بل سولت لهم أنفسهم الأباطيل، فالجواب أن نقول لمن احتج علينا بذلك: إنه ليس تخلو هذه الآية التي حكاها الله عن العفريت أن يكون العفريت عني بقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[٢] إن استطعت ذلك وتكلفته وأردته، أو يكون عني بقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[٣] إن شاء الله، أو يكون عني بقوله: إن قواني الله عليه، ولو لم يعلم سليمان أن العفريت أضمر شيئاً من ذلك لكذبه، ورد عليه قوله، والدليل في ذلك قول الله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[٤] وقد جاء في التفسير: "لا خلاف بين أحد من الموحدين في أنهم كانوا في كل يوم يأملون أن يصبحوا، وقد فتحوه ولا يقولون إن شاء الله، فإذا كان المقدر قالوا: إن شاء الله، فأصبحوا وقد فتحوه"؛ فدل أن لا استطاعة لهم قبل الفعل إلا مع الفعل للفعل بإرادة الله ذلك، وقول الله في صاحب يوسف:﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[٥] أنسى الشيطان الناجي أن يذكر يوسف عند الملك فلم يكن للناجي استطاعة أن يذكر أمر يوسف للملك؛ إذ كان قد وعد يوسف بأن يذكره

---

(١) فند الإمام الأشعري جملة من الآيات القرآنية التي تمسك بها المعتزلة في هذه المسألة . ينظر: اللمع ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤.

(٢) [سورة النمل: ٣٩] .

(٣) [سورة النمل: ٣٩] .

(٤) [سورة الكهف: ٩٧] .

(٥) [سورة يوسف: ٤٢] .

عند ربه قبل خروجه من السجن، وكان ذلك لمام مراد الله بيوسف إلى الوقت المعلوم الذي رأى الملك فيه الرؤيا، وأيضاً قول الله لنبيه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[١] فأمر الله نبيه بأن لا يقدم على فعل شيء يقع في نفسه لم يأت أن يستثنى في قوله، وأخبر الله نبيه أن لا يكون قولك هذا كائناً قبل فعلك له إلا إن أردت أنا ذلك فسلم النبي صلى الله عليه وسلم لأمر الله تعالى)[٢] أ.هـ.

وفي سياق آخر يرد الإمام الأشعري على القائلين بأن "الشر لا يريده ربنا سبحانه" فيقول: (ومما يبين أن الله مريد لكل شيء يجوز أن يراد قول الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٣] فأخبر أنا لا نشاء إلا ما شاء أن نشاءه، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[٥] وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[٦]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [٧] فأخبر أنه لو لم يرد القتال لم يكن، وأن ما أراد من ذلك فقد فعله ... إلخ)[٨] أ.هـ .

---

(١) [سورة الكهف: ٢٣: ٢٤] .

(٢) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٠٩، ١١٠ .

(٣) [سورة الإنسان: ٣٠] .

(٤) [سورة يونس: ٩٩] .

(٥) [سورة السجدة: ١٣] .

(٦) [سورة الأنعام: ١١٢] .

(٧) [سورة البقرة: ٢٥٣] .

(٨) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٥٧، ٥٨ .

***جهود الإمام الأشعري في مسألة "القدر":**

شغلت مسألة «القدر» الفكر الإسلامي بل استحوذت على كتابات العلماء حتى يومنا هذا، والإمام الأشعري قد أدلى بدلوه فيها، فألف فيها كتباً – وإن لم يصلنا منها شيء – مثل: «المختصر فِي التوحيد والقدر في أَبواب من الكلام» ، و «نقض المضاهاة على الإسكافي في التسمية بالقدر»(١)، ومن يطالع كتبه المطبوعة يجد أنه قد أطال النفس في الرد على «القدرية»، وأفسح المجال الآن للإمام لينبئك عن براعته في إلقام هؤلاء الحجر، وكيف أنه استدل بالنص القرآني– بطريقة سلسة – للرد عليهم حيث يقول: (ويدل على بطلان قول القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء حتى يكون؛ لأن الله إذا كتب ذلك وأمر بأن يكتب فلا يكتب شيء لا يعلمه قال تعالى: ﴿وَما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾(٢)، وقال: ﴿أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾(٣)، ﴿لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾(٤)، وقال:﴿أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾(٥)، وقال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(٦) فذلك يبين أنه يعلم الأشياء كلها .

---

(١) ينظر: تبيين كذب المفتري ص ١٣١، ١٣٥ .

(٢) [سورة الأنعام: ٥٩] .

(٣) [سورة المجادلة: ٦] .

(٤) [سورة مريم: ٩٤] .

(٥) [سورة الطلاق: ١٢] .

(٦) [سورة النساء: ٣٢] .

وقد قال تعالى في أهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا﴾[١] فأخبر عما لا يكون أنه لو كان كيف يكون، وقال تعالى: ﴿فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى * قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾[٢] ومن لا يعلم الشيء قبل كونه لا يعلم بعد تقضيه، تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً .

وقد كتب أهل الجنة وأهل النار، وخلقهم فريقين فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير، وبذلك نطق كتابه العزيز؛ إذ يقول: ﴿فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[٤] فخلق الله الأشقياء للشقاء، والسعداء للسعادة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾[٥])[٦] أ.هـ .

وقال أيضاً: (ومما يدل على بطلان قول القدرية قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غافِلِينَ﴾[٧] فجعل تقريرهم بوحدانيته لما أخرجهم من ظهر آدم – عليه السلام – حجة عليهم إذا أنكروا في الدنيا ما كانوا عرفوه في الذر الأول، ثم من بعد الإقرار جحدوه، وقال الله مخبراً عن أهل النار– أعاذنا الله منها – أنهم

---

(١) [سورة الأنعام: ٨٢] .

(٢) [سورة طه: ٥١: ٥٢] .

(٣) [سورة الأعراف: ٣٠] .

(٤) [سورة هود: ١٠٥] .

(٥) [سورة الأعراف: ١٧٩] .

(٦) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٢٧: ٢٢٨، ٢٣٣ .

(٧) [سورة الأعراف: ١٧٢] .

قالوا: ﴿رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ﴾[١] فكل ذلك أمر قد سبق في علم الله تعالى، ونفذت فيه إرادته، وتقدمت فيه مشيئته .

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾[٣] فأخبر تعالى أنه يضل ويهدي، وإذا كان الكفر مما أراده فقد فعله وقدره، وأحدثه وأنشأه واخترعه، وقد تبين ذلك بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُون * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾[٤] فلو كانت عبادتهم للأصنام من أعمالهم كان ذلك مخلوقاً لله تعالى، وقد قال الله: ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥] يريد أنه تعالى يجازيهم على أعمالهم، فكذلك إذا ذكر عبادتهم للأصنام وكفرهم بالرحمن، ولو كان مما قدروه وفعلوه لأنفسهم لكانوا قد فعلوا وقدروا ما خرج عن تقدير ربهم وفعله، وكيف يجوز أن يكون لهم من التقدير والفعل والقدرة ما ليس لربهم؟ فمن زعم ذلك فقد عجَّز الله تعالى الله عن قول المعجزين له علواً كبيراً .

ألا ترى أن من زعم أن العباد يعلمون ما لا يعلمه الله لكان قد أعطاهم من العلم ما لم يدخله في علم الله، وجعلهم لله نظراء، فكذلك من زعم أن العباد يفعلون ويقدِّرون ما لم يقدِّره، ويقدرون على ما لم يقدر

---

(١) [سورة المؤمنون: ١٠٦] .

(٢) [سورة الكهف: ١٧] .

(٣) [سورة البقرة: ٢٦] .

(٤) [سورة الصافات: ٩٥: ٩٦] .

(٥) [سورة السجدة: ١٧] .

عليه، فقد جعل لهم من السلطان والقدرة والتمكن ما لم يجعله للرحمن تعالى عن قول أهل الزور والبهتان، والإفك والطغيان علواً كبيراً)[١] أ.هـ .

ونجد الإمام الأشعري – في موضع آخر– يرد فرية أن الله – تعالى – يأمر بالمنكر بحجة أنه قضاه وقدره أزلاً، وعليه فكيف يعاقب العباد؟! فيقول: (فإن قال قائل: فهل قضي الله تعالى المعاصي وقدرها؟ قيل له: نعم، بأن خلقها وبأن كتبها، وأخبر عن كونها كما قال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾[٢] يعني: أخبرناهم وأعلمناهم، وكما قال تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٣] يريد: كتبناها وأخبرنا أنها من الغابرين، ولا نقول قضاها وقدرها بأن أمر بها)[٤] أ.هـ .

قلت: إن الذي قرره الإمام الأشعري هو المقصود من الآيات؛ فالقضاء هنا معناه «الأمر التكويني لا التشريعي»؛ إذ الله منزه عن الأمر بالفسق والمنكر قال ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾[٥] بل سبحانه لا يأمر إلا بالخير حسبما دلت عليه الآيات المحكمات ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٣٤: ٢٤٠ .

(٢) [سورة الإسراء: ٤] .

(٣) [سورة النمل: ٥٧] .

(٤) ينظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٨١ .

(٥) [سورة الأعراف: ٢٨] .

(٦) [سورة الأعراف: ٢٩] .

وَالْبَغْيِ﴾[١]، وإنما صدرت المعصية من العبد بمحض اختياره، وكامل حريته، وسوء طويته .

***جهود الإمام الأشعري في إثبات "رؤية المولى عز وجل"**:

استدل الإمام الأشعري على وقوع الرؤية في الآخرة بالنصوص القرآنية الصريحة مفسراً إياها بما يتوافق مع اللغة، ويؤيدها العقل السليم حتى خص الإمام بعض مصنفاته بعنوان "العمد فى الرؤية"، و"كتاب في جواز رؤية الله بالأبصار" نقض فيه جميع اعتلالات المعتزلة[٢]، كما أن الإمام سرد في "الباب الأول" من كتابيه: «الإبانة» و «اللمع»[٣] جملة من النصوص القرآنية تثبت رؤية الله – سبحانه – وأكدها بسوق الأحاديث الصحيحة، كما رد على ما أورده المخالف من آيات، وبيَّن أن الاستشهاد بها ليس صحيحاً؛ إذ فهمت على غير تأويلها الصواب، وهذا ما تشهد به قواعد اللغة ومفرداتها الفصيحة[٤]، وبذلك يذهب الإمام الأشعري مذهباً يخالف مذهب المعتزلة الذين يقولون بنفي لوازم الرؤية، ويرى جواز وقوعها في الآخرة .

يقول الإمام الأشعري: (الكلام في إثبات رؤية الله بالأبصار في الآخرة قال الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾[٥]، يعني: مشرقة ﴿إِلَى رَبِّهَا

---

(١) [سورة النحل: ٩٠] .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ١٢٩ .

(٣) ينظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٦١: ٦٨ .

(٤) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص ٤٧: ٦٢ .

(٥) [سورة القيامة: ٢٣] .

ناظِرَةٌ﴾[١]، يعني رائية، وليس يخلو النظر من وجوه نحن ذاكروها: إما أن يكون الله عنى "نظر الاعتبار" كقوله: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٢]، أو يكون عنى "نظر الانتظار" كقوله: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً﴾[٣]، أو يكون عنى "نظر التعطف" كقوله: ﴿وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[٤]، أو يكون عنى "نظر الرؤية"، فلا يجوز أن يكون الله عنى نظر "التفكير والاعتبار"؛ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار، ولا يجوز أن يكون عنى "نظر الانتظار"؛ لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه، كما إذا ذكر أهل اللسان "نظر القلب" فقالوا: "انظر في هذا الأمر بقلبك"، لم يكن معناه "نظر العينين"، وكذلك إذا ذكر النظر مع الوجه لم يكن معناه "نظر الانتظار"؛ الذي يكون للقلب، وأيضاً فإن "نظر الانتظار" لا يكون في الجنة؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة في ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من العيش السليم، والنعيم المقيم، وإذا كان هذا هكذا لم يجز أن يكونوا منتظرين؛ لأنهم كلما خطر ببالهم شيء أتوا به مع خطوره ببالهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز أن يكون الله أراد "نظر التعطف"؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم، وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو أن معنى قوله:﴿إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾[٥] أنها رائية ترى ربها عز وجل .

---

(١) [سورة القيامة: ٢٤] .

(٢) [سورة الغاشية: ١٧] .

(٣) [سورة يس: ٤٩] .

(٤) [سورة آل عمران: ٧٧] .

(٥) [سورة القيامة: ٢٤] .

دليل آخر: قال الله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾[١]، قال أهل التأويل: النظر إلى الله عز وجل، ولم ينعم الله على أهل الجنة بأفضل من نظرهم إليه ورؤيتهم له، وقال: ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾[٢] قيل: النظر إلى الله تعالى، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾[٣] وإذا لقيه المؤمنون رأوه، وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[٤] فحجبهم عن رؤيته ولا يحجب عنها المؤمنين)[٥] أ.هـ.

قلت: إن استدلال الإمام الأشعري في تلك المسألة هو الأوفق والأصوب[٦] حيث جمع بين التفسير بالمأثور وبين التفسير بالرأي المحمود، فهو يثبت الرؤية مع تفويض الكيفية، بل وجدناه يعمل بقاعدة «تفسير القرآن بالقرآن» التي هي إحدى قواعد "التفسير بالمأثور" بل أولاها وأفضلها فيقول في أثناء حديثه عن الرؤية: (فإن قال قائل: فما معنى قوله:﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾[٧] ؟ قيل له: يحتمل أن يكون لا تدركه في الدنيا، وتدركه في الآخرة؛ لأن رؤية الله أفضل اللذات، وأفضل اللذات تكون في أفضل

---

(١) [سورة يونس: ٢٦] .

(٢) [سورة ق: ٣٥] .

(٣) [سورة الأحزاب: ٤٤] .

(٤) [سورة المطففين: ١٥] .

(٥) الإبانة عن أصول الديانة ص ٣٥: ٤٦ .

(٦) أشار الناظم إلى ذلك في تحفة المريد ص ١٢٨: ١٣٠، فقال:

وَمِنْـــهُ أَنْ يُنْظَـــرَ بِالأَبْصَـــارِ ∴ لكِـــنْ بِـــلاَ كَيْـــفٍ وَلاَ انْحِصَـــارِ

لِلْمُـــؤْمِنِينَ إِذْ بِجَـــائِزْ عُلِّقَـــتْ ∴ هـــذِا وَلِلْمُخْتَـــارِ دُنْيَـــا ثَبَتَـــتْ

(٧) [سورة الأنعام: ١٠٣] .

الدارين، ويحتمل أن يكون الله أراد بقوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾[١] يعني: لا تدركه أبصار الكافرين المكذبين؛ وذلك أن كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلما قال في آية: "إن الوجوه تنظر إليه يوم القيامة"، وقال في آية أخرى: "إن الأبصار لا تدركه"، علمنا أنه إنما أراد أبصار الكافرين لا تدركه)[٢] أ.هـ .

وهكذا سخر الإمام أدوات العلم وما يمتلكه من وسائل المعرفة في الرد على هؤلاء المخالفين لجمهور أهل العلم في إثبات الرؤية البصرية في الآخرة[٣]، ووقف أمامهم كحائط سد منيع؛ إذ حاولوا لي عنق الآيات بما يوافق معتقدهم وهواهم ضاربين عرض الحائط بما تدل عليه ظواهر النصوص[٤]، ومخالفته لهم إنما هي استجابة منه لقرار العقل وحكمه؛ إذ العقل بعد أن قرر أن القرآن كلام الله – تعالى– الموحى به إلى رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا بد أن يجزم بصحة ما ينطق به كلامه، فهو – سبحانه – قد وعد عباده المؤمنين بذلك، وإخراج الكلام عن حقيقته الدالة على وقوع الرؤية إلى المجاز الذي ينفيها إنما هو مشاكسة لكل من العقل والنص معاً .

---

(١) [سورة الأنعام: ١٠٣] .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ٤٧ .

(٣) ينظر: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي ص ٣٢٤، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الثانية، ١٩٧٧ م .

(٤) ينظر: ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري لابن أبي شامة ص ٢١، ط: دار السراج المنير، القاهرة، الأولى، ١٤٢٨هـ .

***جهود الإمام الأشعري في إثبات "الصفات للّه تعالى"**:

أثبت الإمام الأشعري ما أثبته الله لذاته في كتابه الكريم من الصفات دون تعطيل ولا تجسيم، بل جعل عدم مماثلة الخالق للمخلوق من الأمور المجمع عليها عند السلف، وأن الإيمان به واجب، وترك التكييف له لازم[١] ولم يسقط في متاهات التشبيه والتجسيم، وقد ألف في هذا كتاب "الرد على المجسمة"[٢]، ولم يتطرف مع من تطرف في التعطيل حتى أنكروا بعض الصفات إن لم يكن جلها[٣]؛ ولذا صنَّف الإمام كتاباً كَبِيراً في "الصفات" تكلم فيه على أصناف المعتزلة والجهمية والمخالفين لنَا فيها في نفيهم علم اللَّه وَقدرته وسائر صفاته، وعلى من قال بقدم العالم، وفي فنون كثيرة من فنون الصفات[٤] يقول الإمام مستعيناً بنصوص التنزيل في إثباتها: (والدليل على أن لله قدرة وحياة كالدليل على أن لله علماً وقد قال جل ذكره: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[٥] وقال: ﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾[٦] فثبت العلم لنفسه، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ

---

(١) ينظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١١٩، ١٣٣ .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ١٣٠ .

(٣) خص الإمام من كتابه "الإبانة" بعنوان: الباب السابع: "الرد على الجهمية في نفيهم علم الله – تعالى – وقدرته وجميع صفاته" . ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص ١٤١: ١٦٠ .

(٤) ينظر: تبيين كذب المفتري ص ١٢٩ .

(٥) [سورة النساء: ١٦٦] .

(٦) [سورة فاطر: ١١] .

أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾[١] فثبت القوة لنفسه، وهذا الدليل يدل على إثبات صفات الله – تعالى – لذاته كلها: من الحياة، والقدرة، والسمع، والبصر وسائر صفات الذات)[٢] أ.هـ .

وقال أيضاً: (ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج، ونثبت أن لله قوة كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[٣])[٤] أ.هـ .

لقد احتكم الإمام الأشعري في مسألة "إثبات الصفات أو الأسماء الإلهية" إلى الآيات القرآنية و"قاعدة الاشتقاق"؛ فاللغة التي نزل بها القرآن أُثبت فيها اشتقاق الصفات أو الأسماء، ومن القواعد المقررة أن "القول الذي يؤيده تصريف الكلمة، وأصل اشتقاقها أولى من غيره؛ لأن التصريف والاشتقاق يعيدان الألفاظ إلى أصولها، فتتضح الألفاظ والمعاني المتفرعة عنها"[٥] فيقول الإمام: (يقال لهم: وجدنا اسم "عالم" اشتق من "علم"، واسم "قادر" اشتق من "قدرة"، وكذلك اسم "حي" اشتق من "حياة"، واسم "سميع" اشتق من "سمع"، واسم "بصير" اشتق من "بصر"، ولا تخلو أسماء الله من أن تكون مشتقة إما لإفادة معنى، أو على طريق التلقيب،

---

(١) [سورة فصلت: ١٥] .

(٢) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٢٩: ٣١ .

(٣) [سورة فصلت: ١٥] .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٢ .

(٥) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، دراسة نظرية تطبيقية، حسين بن علي بن حسين الحربي ٢ / ٥١١، ط: دار القاسم، الرياض، الأولى، ١٤١٧ هـ .

فلا يجوز أن يسمى الله على طريق التقليب باسم ليس فيه إفادة معنى، وليس مشتقاً من صفة .

فإذا قلنا: إن الله عالم قادر فليس تلقيباً كقولنا زيد وعمر، وعلى هذا إجماع المسلمين، وإذا لم يكن كذلك تلقيباً كان مشتقاً من "علم"، فقد وجب إثبات العلم، وإن كان ذلك لإفادة معنى، فلا يختلف ما هو لإفادة معنى واجب إذا كان معنى العالم منا أن له علماً أن يكون كل عالم فهو ذو علم، كما إذا كان قولي موجود مفيداً فينا الإثبات كان الباري واجباً إثباته؛ لأنه سبحانه موجود)[١] أ.هـ .

ويكمل هذا الاستدلال في موضع آخر فيقول: (وإذا كان وصف الباري بسائر ما ذكرناه من كونه حياً وقادراً وعالماً ومتكلماً ومريداً وسميعاً وبصيراً في الحقيقة دون المجاز والتلقيب وجب إثبات هذه الصفات التي اشتق له الأوصاف من أخص أسمائها، وقد أوضح ذلك بقوله: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٢]، وقال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[٣]، وقال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾[٤] ولا يجب إذا أثبتنا هذه الصفات له على ما دلت العقول واللغة والقرآن والإجماع عليها أن تكون محدثة)[٥] أ.هـ .

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٥١: ١٥٢ .

(٢) [سورة الذاريات: ٥٨] .

(٣) [سورة النساء: ١٦٦] .

(٤) [سورة البقرة: ٢٥٥] .

(٥) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١٢٣ .

***جهود الإمام الأشعري في إثبات أن "القرآن كلام الله قديم غير مخلوق":**

ناقش الإمام مسألة خلق القرآن الكريم التي أُثرت عن المعتزلة، وكانت سبب المحنة المشهورة ب «فتنة خلق القرآن» والتي ابتلي بها الفقهاء والمحدثون في تحقيقٍ دقيقٍ حيث حولها من قضية دامية إلى مسألة بسيطة مزج فيها الأدلة النقلية مع العقلية، وقد أفرد باباً كاملاً في كتابه: "الإبانة" دلل فيه على صحة رأيه مستعيناً بالآيات القرآنية، ثم شفعه بسرد الروايات الواردة عن السلف[١] يقول الإمام: (إن سأل سائل عن الدليل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق: قيل له: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَن تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[٢] ، وأمر الله كلامه، فلما أمرهما بالقيام فقامتا لا يهويان؟ كان قيامهما بأمره، وقال عز وجل: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٣]، فالخلق جميع ما خلق داخل فيه؛ لأن الكلام إذا كان لفظه عاماً فحقيقته أنه عام، ولا يجوز لنا أن نزيل الكلام عن حقيقته بغير حجة ولا برهان، فلما قال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ﴾[٤] كان هذا في جميع الخلق، ولما قال: ﴿وَالْأَمْرُ﴾[٥] ذكر أمراً غير جميع الخلق، فدل ما وصفنا على أن أمر الله غير مخلوق .

---

(١) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص ٦٣: ١٠٤ .

(٢) [سورة الروم: ٢٥] .

(٣) [سورة الأعراف: ٥٤] .

(٤) [سورة الأعراف: ٥٤] .

(٥) [سورة الأعراف: ٥٤] .

دليل آخر: ومما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق قوله سبحانه: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١] فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب أن يكون مقولاً له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[٢]، ولو كان الله – عز وجل – قائلاً للقول: "كن" لكان للقول قولاً، وهذا يوجب أحد أمرين: إما أن يؤول الأمر إلى أن قوله تعالى غير مخلوق، أو يكون كل قول واقع بقول لا إلى غاية، وذلك محال، وإذا استحال ذلك صح وثبت أن الله – عز وجل – قولاً غير مخلوق .

دليل آخر: وقال الله تعالى: ﴿قُل لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[٣] ، فلو كانت البحار مداداً للكتبة لنفدت البحار، وتكسرت الأقلام، ولم يلحق الفناء كلمات ربي، كما لا يلحق الفناء علم الله تعالى، ومن فني كلامه لحقته الآفات، وجرى عليه السكوت، فلما لم يجز ذلك على ربنا – سبحانه – صح أنه لم يزل متكلماً؛ لأنه لو لم يكن متكلماً وجب السكوت والآفات، تعالى ربنا عن قول الجهمية علواً كبيراً)[٤] أ.هـ .

قلت: أصاب الإمام الأشعري في استدلاله هذا أيما إصابة؛ إذ الصحيح الذي عليه أهل السنة أن كلام الله – تعالى – غير مخلوق بمعنى أن المعنى القديم القائم بالذات المقدسة غير محدث؛ لأن كلام الله – سبحانه

---

(١) [سورة النحل: ٤٠] .

(٢) [سورة النحل: ٤٠] .

(٣) [سورة الكهف: ١٠٩] .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٦٣: ٦٧ .

– صفته قال ربنا:﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾(١)، ويستحيل اتصاف القديم بالمحدث(٢)، فتأمل كيف سبك الإمام الأدلة القرآنية سبكاً رائعاً بحيث يدركها العامي والمختص، وليس معنى هذا أنه تساهل في المسألة؛ لذا نجده يحكم على من تبنى القول بخلق القرآن بحكم صارم فيقول: (إن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر)(٣)؛ وذلك لما يترتب عليها من مفاسد كتعطيل بعض الصفات الإلهية، ووصف الله – عز وجل – بما يليق، وضرب آيات القرآن بعضها بعضاً ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾(٤)

إن الإمام الأشعري قد وافق أهل العلم قبله في تقرير تلك المسألة يقول الإمام أحمد: (والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ من الله – تعالى – سمع موسى – عليه السلام

---

(١) [سورة التوبة: ٦] .

(٢) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي ص ٧١: ٧٤، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٤ هـ، وأشار الناظم إلى ذلك في تحفة المريد ص ١٠٦، ١٠٧، فقال:

وَنَـــزِّهِ الْقُـــرْآنَ أَيْ كَلاَمَـــهْ ∴ عَـنِ الحُـدُوثِ وَأَحْـذَرِ انِتْقَامَـهْ

وَكُـــلُّ نَـــصٍ لِلْحُـــدُوثِ دَلاَّ ∴ اِحْمِـلْ عَلَـى اللَّفْـظِ الـذَّي قَـدْ دَلاَّ

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٥ .

(٤) [سورة النساء: ٨٢] .

– يقيناً، وناوله التوراة من يده، ولم يزل الله متكلماً عالماً ﴿تَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾)[١] أ.هـ .

*جهود الإمام الأشعري في إثبات "عذاب القبر، وإعادة الأجساد" وغيره من السمعيات:

نفى بعض المعتزلة والخوارج[٢] وغيرهم[٣] وقوع عذاب القبر حيث قاسوا الأمور الغيبية على الأمور المشاهدة، وتناسوا أن مجالها التسليم على نحو ما جاء به الخبر الصادق فلا تدرك بالنظائر ولا يصل إليها العقول، أما الإمام الأشعري فقد دلل على بطلان مذهبهم هذا من خلال النصوص القرآنية، وأثبت عذاب القبر ونعيمه وأنه واقع لا محالة يقول الإمام: (وأنكرت المعتزلة عذاب القبر أعاذنا الله منه، ومما يبين عذاب الكافرين في القبور قول الله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾[٤]، فجعل عذابهم يوم تقوم الساعة بعد عرضهم على النار في الدنيا غدواً وعشياً، وقال تعالى:

---

(١) كتاب السنة ١ / ٢٧، ٢٨، ت: عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ، الناشر: المطبعة السلفية، ١٣٤٩ هـ .

(٢) نقل الإمام الأشعري عنهم ذلك . ينظر: مقالات الإسلاميين ٢ / ٣١٨ .

(٣) نسبه البغدادي إلى "الجهمية والضرارية" . أصول الدين ص ٢٤٥، ط: مدرسة الآلهيات بدار الفنون التركية، مطبعة الدولة، استانبول، الأولى، ١٩٢٨م، ونسب الملطي إلى "جهم بن صفوان" إنكار عذاب القبر ومنكر ونكير. التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٩٤، عنى بتصحيحه: س: ديد رينغ، ط: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٤٣٠هـ .

(٤) [سورة غافر: ٤٦] .

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ﴾[١] مرة بالسيف، ومرة في قبورهم، ثم يردون إلى عذاب غليظ في الآخرة .

وأخبر الله أن الشهداء في الدنيا يرزقون ويفرحون بفضل الله قال الله: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢]، وهذا لا يكون إلا في الدنيا؛ لأن الذين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا ولا قتلوا)[٣] أ.هـ .

لم يأل الإمام الأشعري جهداً في الاستدلال بالنص القرآني من حيث أدلته في إثبات السمعيات، ولِمَ لا؟! وكتاب ربنا – سبحانه– قد حوى كل شيء ﴿مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِن شَيْءٍ﴾[٤]؛ ولذا استطاع الإمام بكل ما أوتي من جهد انتزاع بعض الأدلة العقلية المستخلصة من القرآن الكريم لإثبات بعض «السمعيات» التي حاول كثير من الفلاسفة وغيرهم إنكارها بل طمسها من خلال أدلة هشة معقدة متداخلة، فنجد الإمام يشير إلى إحدى الوسائل التي سلكها الكتاب العزيز في إثبات المعاد الجسماني ألا وهو «قياس الإعادة على الابتداء، وقياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر»[٥] فيقول: (فإن قال قائل: ما الدليل على جواز إعادة الخلق؟ قيل له: الدليل على ذلك أن الله خلقه أولاً لا على مثال سبق، فإذا

---

(١) [سورة التوبة: ١٠١] .

(٢) [سورة آل عمران: ١٦٩: ١٧٠] .

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٤٧: ٢٥٠ .

(٤) [سورة الأنعام: ٣٨] .

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢٦، والإتقان في علوم القرآن ٤ / ٦٢ .

خلقه أولاً لم يعيه أن يخلقه خلقاً آخر، وقد قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(١) فجعل النشأة الأولى دليلاً على جواز النشأة الآخرة؛ لأنها في معناها، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٢) فجعل ظهور النار على حرها ويبسها من الشجر الأخضر على نداوته ورطوبته دليلاً على جواز خلقه الحياة في الرمة البالية، والعظام النخرة، وعلى قدرته على خلق مثله، ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ﴾(٣) وهذا هو المعول عليه في الحجاج في جواز إعادة الخلق، وهذا هو الدليل أيضاً على صحة الحجاج والنظر؛ لأن الله – تعالى – حكم في الشيء بحكم مثله، وجعل سبيل النظير، ومجراه مجرى نظيره وقد قال الله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٥) – يريد وهو هين عليه– فجعل الابتداء كالإعادة .

ثم يضيق ذرعاً فيهاجم أولئك الذين يضيقون النظر والاستدلال فيقول: فإن قال قائل: زيدوني وضوحاً في صحة النظر، قيل له: قول الله مخبراً عن إبراهيم – عليه السلام – لما رأى الكوكب: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ

---

(١) [سورة يس: ٧٨، ٧٩] .

(٢) [سورة يس: ٨٠] .

(٣) [سورة يس: ٨١] .

(٤) [سورة يونس: ٣٤] .

(٥) [سورة الروم: ٢٧] .

يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[١] فجمع عليه السلام القمر والكوكب في أنه لا يجوز أن يكون واحد منهما إلهاً رباً لاجتماعهما في الأفول، وهذا هو النظر والاستدلال الذي ينكره المنكرون، وينحرف عنه المنحرفون)[٢] أ.هـ .

نلحظ فيما سبق قوة الاستنباط، والقدرة على الاحتجاج، وإلزام المخالف ما يترتب على أقوالهم من مسلمات أو مخالفات كل ذلك في أسلوب رياضي جزل، وعبارة ناصعة مشوقة، تعتمد الجزم والتحديد، بعيداً عن الحشو والتعقيد، وقد استعمل الإمام الأشعري دليلين آخرين هما: «برهان القياس بجامع العلة المشتركة»، و «مظهر المحاكمة الفكرية في طريق البحث عن الخالق»[٣] .

كما أثبت الإمام الأشعري باقي «السمعيات» التي ثبتت بالقرآن والسنة فقال: (ونؤمن بالحوض، وأن الميزان حق، والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله – عز وجل– يوقف العباد في الموقف، ويحاسب المؤمنين، ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان .... إلخ)[٤] أ.هـ .

وقال أيضاً: (وأجمعوا على أن للعباد حفظة يكتبون أعمالهم، وقد دل على ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾[٥])[٦] أ.هـ .

---

(١) [سورة الأنعام: ٧٦، ٧٧] .

(٢) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٢١: ٢٣ .

(٣) ينظر: أشعري أنا ..... عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٤٦ .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٧: ٣٢ .

(٥) [سورة الإنفطار: ١٠: ١١] .

(٦) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١٥٩ .

ونجد الإمام يرد أيضاً على من أنكر «الشفاعة»[١] في أصحاب الكبائر مستدلاً بالنصوص الصريحة فيقول: (فإن قالوا: يشفع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى الله – عز وجل - في أن يزيدهم من فضله، لا في أن يدخلهم جناته، قيل لهم: أو ليس قد وعدهم الله ذلك فقال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ﴾[٢]، والله – تعالى - لا يخلف وعده، فإنما يشفع إلى الله عندكم من أن يخلف وعده، وهذا جهل منكم، وإنما الشفاعة المعقولة فيمن استحقه عقاباً أن يوضع عنه عقابه، أو في من لم يعده شيئاً أن يتفضل عليه به، فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقاً فلا وجه لهذا، فإن سألوا عن قول الله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾[٣] فالجواب عن ذلك: إلا لمن ارتضى لمن يشفعون له، وقد روي أن شفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكبائر)[٤] أ.هـ .

***جهود الإمام الأشعري في الرد على المنكرين ٭ للسحر وتأثيره**":

استدل الإمام الأشعري بالنصوص القرآنية في إثبات مسألة «السحر، ووسوسة الشيطان للإنسان»، ورأى أن الآيات التي جاءت فيها إنما هي على الحقيقة، وليس كما يزعم جمهور المعتزلة والجهمية[٥]

---

(١) نقل الإمام الأشعري هذا عن المعتزلة والخوارج . ينظر: مقالات الإسلاميين ٢/٣٥٤، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٦٨٨: ٦٩٣، حققه: د/ عبد الكريم عثمان، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة .

(٢) [سورة النساء: ١٧٣] .

(٣) [سورة الأنبياء: ٢٨] .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٤٢: ٢٤٣ .

(٥) نقل الإمام الأشعري عنهم ذلك . ينظر: مقالات الإسلاميين ٢ / ٣٢٨، ونص عليه الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وغيرها من آيات السحر . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه ==

والظاهرية[١] من أنها محمولة على المجاز والتخيل والتمويه، فحرفت بذلك الكلم عن مواضعه، غروراً بمسلمات عقولهم، ضاربين عرض الحائط بنصوص الكتاب العزيز .

يقول الإمام الأشعري: (ونصدق بأن في الدنيا سحرة وسحراً، وأن السحر كائن موجود في الدنيا، ونقر أن الشيطان يوسوس الإنسان، ويشككه ويخبطه خلافا للمعتزلة والجهمية كما قال تعالى:﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٢]، وكما قال: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[٣])[٤] أ.هـ .

قلت: والصواب أن السحر والوسوسة لهما حقيقة وتأثيرهما واقع كما أخبر الشارع الحكيم، كما أنه لا ضرورة من تعطيل صريح القرآن وبيان السنة[٥]، وتحميل ما لا يحتملاه جنوحاً إلى فلسفة عقلية منتزع في إلحاد

==

التأويل ١ / ٣٢٠، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة، ١٤٠٧هـ، والقاضي عبد الجبار الهمذاني . متشابه القرآن ١/١٠١، ت: د: عدنان زرزور، ط: دار التراث، القاهرة .

(١) ينظر: المحلى بالآثار ١/ ٥٨، ط: دار الفكر، والفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ١٢٠، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة .

(٢) [سورة البقرة: ٢٧٥] .

(٣) [سورة الناس: ٤: ٦] .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٣١: ٣٢ .

(٥) من ذلك ما جاء عن أبي هريرة قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا» . صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب

==

ظلمات بعضها فوق بعض[١]، ومن قواعد التفسير المقررة: «وجوب حمل نصوص الوحي على الحقيقة ولا تحمل على المجاز أو التأويل إلا بدليل أو قرينة»[٢]، وبهذا المسلك قطع الإمام الأشعري الطريق على هؤلاء الذين يقدسون العقل، ويجعلونه مهيمناً على كل شيء، ويغمضون أعينهم عن رؤية الصواب، والذي أيده الإمام وانتصر له ودلل عليه يوافق اعتقاد أهل السنة والجماعة يقول الإمام النووي: (والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة)[٣] أ.هـ .

==

قول الله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ٤ / ١٦٤ برقم ٣٤٣١، وعند مسلم بلفظ: «إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ» . صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام ٤ / ١٨٣٨ برقم ٢٣٦٦ .

وقصة سحر لبيد بن الأعصم للرسول صلى الله عليه وسلم مع اليقين والاعتقاد بأن تأثير السحر عليه – صلى الله عليه وسلم – إنما كان على جسده الشريف وظاهر جوارحه لا على قلبه وعقله واعتقاده . صحيح البخاري كتاب الطب، باب السحر ٧/ ١٣٦ برقم ٥٧٦٣، وصحيح مسلم كتاب السلام، باب السحر ٤ / ١٧١٩ برقم ٢١٨٩ .

(١) ينظر: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير الإسكندري ١ / ٣٢٠، ط: دار الكتاب العربي، الثالثة، ١٤٠٧ هـ .

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١ / ١٩، ط: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الأولى، ١٤١٦ هـ .

(٣) روضة الطالبين وعمدة المفتين ٩ / ٣٤٦، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الثالثة، ١٤١٢هـ .

***جهود الإمام الأشعري في إثبات "إمامة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم":**

أدرك الإمام الأشعري مكانة الصحابة ودورهم في حفظ الشريعة الغراء، وأن الطعن فيهم معول لهدم هذا الدين، وأحال الخلاف الذي جرى بينهم إلى فهمه في ضوء نصوص الشرع الحكيم، وضرورة استحضار قيم الاختلاف المحمود الناتج عن الاجتهاد الذي وُسموا به أجمعين، وقد تعبدنا الله بتوقيرهم، وتعظيمهم وموالاتهم، والتبري من كل من ينقص أحداً منهم رضي الله عنهم(١)، ومن ثم ارتكز جهد الإمام الأشعري في جل مصنفاته على إثبات إمامة الأئمة الأربعة مستعيناً بالأدلة النقلية والعقلية فضلاً عن إجماع المسلمين على مبايعتهم لهم(٢)، ومن ثم يظهر جلياً فساد من خالف ذلك، وقد ألف الإمام كتاب "الإمامة" تكلم فيه عن إثبات إمامة الصديق، وأبطل قول من قال بالنص وأنه لا بُد من إمامٍ معصومٍ في كل عصر(٣) غير غافلٍ في ذلك عما دلت عليه بعض الآيات القرآنية فيقول: (قال الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٤)، وقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا

(١) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٦٠، ومقالات الإسلاميين ٢ / ٣٤٠ .

(٢) ينظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٣٣: ١٣٦، ورسالة إلى أهل الثغر ص ١٧١ .

(٣) تبيين كذب المفتري ص ١٢٩ .

(٤) [سورة النور: ٥٥] .

عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[١]، وأثنى الله على المهاجرين والأنصار والسابقين إلى الإسلام، وعلى أهل بيعة الرضوان، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار في مواضع كثيرة، وأثنى على أهل بيعة الرضوان فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[٢]، وقد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهم على إمامة أبي بكر الصديق، وسموه خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبايعوه وانقادوا له، وأقروا له بالفضل، وكان أفضل الجماعة في جميع الخصال التي يستحق بها الإمامة من العلم والزهد، وقوة الرأي، وسياسة الأمة وغير ذلك، وقد دل الله على إمامة أبي بكر الصديق في سورة براءة فقال للقاعدين عن نصرة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمتخلفين عن الخروج معه : ﴿قُلْ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[٣] ، وقال في سورة أخرى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ﴾[٤] يعني قوله: ﴿قُلْ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾[٥]، ثم قال: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾[٦] يعني تعرضوا عن إجابة الداعي لكم إلى قتالهم، والداعي لهم إلى ذلك غير النبي صلى الله

---

(١) [سورة الحج: ٤١] .

(٢) [سورة الحج: ١٨] .

(٣) [سورة التوبة: ٨٣] .

(٤) [سورة الفتح: ١٥] .

(٥) [سورة التوبة: ٨٣] .

(٦) [سورة الفتح: ١٦] .

عليه وسلم الذي قال الله له: ﴿قُلْ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾(١)، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ﴾(٢) فمنعهم الخروج مع نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل خروجهم معه تبديلاً لكلامه، فوجب بذلك أن الداعي الذي يدعوهم إلى القتال داع يدعوهم بعد نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن كانوا أهل اليمامة فقد قاتلهم بعد نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر الصديق، وإن كانوا الروم فقد قاتلهم الصديق أيضاً، وإن كانوا أهل فارس فقد قوتلوا في أيام أبي بكر، وقاتلهم عمر من بعده، وفرغ منهم، وإذا وجبت إمامة عمر وجبت إمامة أبي بكر، كما وجبت إمامة عمر؛ لأنه العاقد له الإمامة، فقد دل القرآن على إمامة الصديق والفاروق، وثبتت إمامة عثمان بعد عمر بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر، فاختاروه، ورضوا بإمامته، وأجمعوا على فضله وعدله، وتثبت إمامة علي بعد عثمان لعقد من عقدها له من الصحابة من أهل الحل والعقد، ولأنه لم يدعها أحد من أهل الشورى غيره في وقته، وقد اجتمع على فضله وعدله، هؤلاء هم الأئمة الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين)(٣) أ.هـ.

وبعد: هذه لمحة موجزة عن جانبٍ من جهود الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني في الرد على المخالفين في شتى جوانب العقيدة، وقد كان عمدته وسلاحه الأول كتاب الله – تعالى – ولذا اتفقت كلمة الأئمة بعده على أنه لم يبتدع مذهباً أو يخترع فرقة جديدة تخالف

---

(١) [سورة التوبة: ٨٣] .

(٢) [سورة الفتح: ١٥] .

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٥١: ٢٥٩ .

ما ورثته الأمة عن الصحابة، وقد أصاب ابن العماد حيث قال: (بيَّض به وجوه أهل السنة النبوية، وسوَّد به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق الأبلج ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلج)[١] أ.هـ .

المطلب الثاني

السمات العامة في منهج الإمام الأشعري من خلال الاستدلال بالنص القرآني

المستقرىء لتراث الإمام الأشعري يجد أن ثمة معالم بارزة لمنهجه في الاستدلال بالنص القرآني، وهذه الآليات وتلك السمات التي سلكها الإمام، واهتدى إليها إنما أثبتها بأدلة نقلية مسبورة، وبراهين عقلية مخبورة، وحجج موصلة للصواب، فمن سار في دربها، وعمل بها نجا، ومن حاد عنها ضل وغوى، لكن استخلاصها يحتاج إلى مزيد تدقيق، وإطالة نظر وتحقيق، وفيما يلي بيان لأبرز تلك المعالم:

أولاً: تفسير القرآن الكريم لا يصح بمجرد الرأي دون برهان قوي وحجة واضحة من كتاب الله – تعالى - أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو إجماع:

لقد وضع الإمام الأشعري منهجاً واضحاً يسير عليه في الاستدلال بالنص القرآني يتلخص فيما يعرف بـ "التفسير بالمأثور"[٢] وهذا ما نص عليه حيث قال: (فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافعة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون،

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤ / ١٣٠ .

(٢) سبق الحديث عن ذلك في جهود الإمام – رحمه الله – في المبحث الثاني فليراجع هناك كالكلام على الرؤية وغيرها .

وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون)[١] أ.هـ .

وقال أيضاً: (ولا نقدم بين يدي الله في القول)[٢] أ.هـ .

وقد استخدم الإمام الأشعري عدة قواعد وضوابط منهجية في الاستدلال بالنص القرآني عند الرد على هؤلاء المخالفين منها:

- "قاعدة الجمع بين النصوص المتعارضة": يقول الإمام في سياق الكلام عن "أفعال العباد": (ومن سأل عن قول الله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] قيل له: المعنى في ذلك أنه أراد بعض الجن والإنس وهم العابدون لله منهم؛ لأن الله قال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾[٤]، والقرآن لا يتناقض، فوجب أن يكون الله خلق لجهنم كثيراً بالآية التي تلوناها، وأنه خلق بعضهم للعبادة بقوله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٥] والذين خلقهم لعبادته هم الذين أراد هو أن يعبدوه، وعاقبتهم عبادته)[٦] أ.هـ .

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٠ .

(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص ١٦٨ .

(٣) [سورة الذاريات: ٥٦] .

(٤) [سورة الأعراف: ١٧٩] .

(٥) [سورة الذاريات: ٥٦] .

(٦) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١١٣ .

– قاعدة "حمل اللفظ على ظاهره ولا يصرف إلى المجاز إلا إذا تعذر حمله على الحقيقة": يقول الإمام: (حكم كلام الله – تعالى– أن يكون على ظاهره وحقيقته، ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا بحجة ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم، فإذا ورد بلفظ العموم والمراد به الخصوص فليس هو على حقيقة الظاهر، وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة، ولو جاز ذلك لجاز لمدعٍ أن يدعي أن ما ظاهره العموم فهو على الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة)[١] أ.هـ .

وقال أيضاً: (والقرآن العزيز على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة، وإلا فهو على ظاهره)[٢] أ.هـ .

– إقرار وجوب العمل بالمحكم، ويتوقف ويكل معرفة ما لم نهتدي لتفسيره إلى الله – تعالى – كالمتشابه فيقول الإمام: (وأجمعوا على وجوب العمل بمحكمه، والإقرار بنص مشكله ومتشابهه، ورد كل ما لم يحط به علماً بتفسيره إلى الله مع الإيمان بنصه، وأن ذلك لا يكون إلا فيما كلفوا الإيمان بجملته دون تفصيله)[٣] أ.هـ .

– "الإجماع حجة في إزالة المعنى الظاهر": يقول الإمام: (فإن قالوا إذا أثبتم لله يدين لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٤] فلم لا أثبتم له "أيدي"

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٣٩: ١٤٠ .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ٤٠ .

(٣) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١٦٦، ١٦٧ .

(٤) [سورة ص: ٧٥] .

لقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا﴾[١]، قيل لهم: قد أجمعوا على بطلان قول من أثبت لله "أيدي"، فلما أجمعوا على بطلان قول من قال ذلك؛ وجب أن يكون الله ذكر "أيدي" ورجع إلى إثبات يدين؛ لأن الدليل عنده دل على صحة الإجماع، وإذا كان الإجماع صحيحاً وجب أن يرجع من قوله "أيدي" إلى يدين؛ لأن القرآن على ظاهره، ولا يزول عن ظاهره إلا بحجة، فوجدنا حجة أزلنا بها ذكر "الأيدي" عن الظاهر إلى ظاهر آخر، ووجب أن يكون الظاهر الآخر على حقيقته لا يزول عنها إلا بحجة)[٢] أ.هـ .

قلت: مع ضرورة الاعتقاد بأن هذا كله مقيد بقول ربنا – سبحانه – ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٤]، وفيما يدخل تحت قاعدة "رد المتشابه إلى المحكم، وبناؤه عليه"، والله أعلم .

– قاعدة "العموم والخصوص": نص عليها الإمام في مسألة "الوعد والوعيد"[٥] فقال: (إن قال قائل: خبرونا عن قول الله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[٦] ، وعن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما

---

(١) [سورة يس: ٧١] .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٣٧، ١٣٨ .

(٣) [سورة الشورى: ١٤] .

(٤) [سورة الإخلاص: ٤] .

(٥) أجاب الإمام الأشعري باستفاضة عن تلك المسألة في كتابه: "اللمع" حيث سرد الآيات الواردة في ذلك ووجهها توجيهاً صحيحاً . ينظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٢٧: ١٣١.

(٦) [سورة الإنفطار: ١٤] .

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[١] فالجواب عن ذلك: يحتمل أن يقع على جميع من يفعل ذلك، ويحتمل أن يقع على بعض؛ لأن لفظ "من" يقع في اللغة مرة على الكل، ومرة على البعض، فلما كانت صورة اللفظ ترد مرة، ويراد بها البعض وترد أخرى، ويراد بها الكل لم يجز أن يقطع على الكل بصورتها كما لا يقطع على البعض بصورتها، وكذلك لا يقضي بقوله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[٢] ، و﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾[٣] على بعض ولا على كل إذا كان يقع لك تارة على الكل، وتارة على البعض، ولو جاز لزاعم أن يزعم: أن الصورة إنما هي للكل حتى تأتي دلالة البعض لم يكن هذا لزاعم بزعمه هذا أولى ممن قال: صورة هذا القول يوجب القضاء على البعض إلى أن تقوم دلالة الكل، فلما تكافأ القائلان في قولهما وجب أن يكون القولان جميعاً ملغيين، فلما كانت هذه الألفاظ ترد مرة يراد بها الكل، وترد أخرى يراد بها البعض لم يجز أن يقضي على الكل دون البعض، ولا على البعض دون الكل إلا بدلالة ... إلخ)[٤] أ.هـ .

- "ضابط سبب النزول": في سياق الرد على "القدرية" نجد الإمام يشير إليها فيقول: (إن سأل سائل عن قول الله:﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[٥] فالجواب أن الآية إنما نزلت في العهود التي كانت بين المشركين وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله قال:﴿بَرَاءَةٌ مِنَ

---

(١) [سورة النساء: ١٠] .

(٢) [سورة الإنفطار: ١٤] .

(٣) [سورة النساء: ١٠] .

(٤) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٢٧، ١٢٨ .

(٥) [سورة التوبة: ٣] .

اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[١] فأجلهم الله أربعة أشهر ثم قال: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٢] يقول وإعلام من الله ورسوله ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[٣] يعني من العهود التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم إذا انقضت الأربعة الأشهر، ثم استثنى قوماً من المشركين يقال إنهم من "بني كنانة" فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[٤] إلى انقضاء مدتهم على أن الله ذكر المشركين ولم يقل "من شركهم"، ولو كان قوله:﴿بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥] يدل على أنه لم يخلق شركهم لدل على أنه لم يخلقهم؛ لأنه تعالى بريء من المشركين ومن شركهم، ولو كان قوله:﴿بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦] يوجب أنه ما خلق شركهم للزم القدرية إذ قال إنه ولي المؤمنين أنه خلق إيمانهم، فلما لم يكن هذا عندهم هكذا بطل ما قالوه)[٧] أ.هـ.

ومن احتكام الإمام الأشعري أيضاً إلى "سبب النزول" لدحض الشبهات ما ذكره في سياق الرد على من قال "إن علم الكلام بدعة، والبحث عنه ضلالة" حيث قال: (أما أصلنا في استدراكنا مغالَطة الخصوم

---

(١) [سورة التوبة: ١: ٢] .

(٢) [سورة التوبة: ٣] .

(٣) [سورة التوبة: ٣] .

(٤) [سورة التوبة: ٧] .

(٥) [سورة التوبة: ٣] .

(٦) [سورة التوبة: ٣] .

(٧) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٨٨: ٨٩ .

فمأخوذ من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[١] إلى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾[٢] فإنها لما نزلت هذه الآية بلغ ذلك عبد الله بن الزِّبَعرَى- كان جدِلاً خصِماً - فقال: "خصمت محمداً وربِّ الكعبة", فجاء إليه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: "يا محمد ألست تزعم أن عيسى وعزيراً والملائكة عُبِدوا؟ فسكت النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا سكوت عِي ولا منقطع تعجباً من جهله؛ لأنه ليس في الآية ما يوجب دخول عيسى وعزيز والملائكة فيها؛ لأنه قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل "كل ما تعبدون من دون الله"، وإنما أراد ابن الزِّبَعْرَى مغالطة النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليُوهِم قومَه أنه قد حاجه فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسْنَى﴾[٣] يعني من المعبودين ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٤] فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك, فضجُّوا عند ذلك لئلا يتبين انقطاعهم وغلطهم فقالوا: "أآلهتنا خير أم هو" يعنون عيسى فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[٥] إلى قوله: ﴿خَصِمُونَ﴾[٦])[٧] أ.هـ .

- "ضابط السياق": نستنبط تلك القاعدة من خلال حديثه عن إثبات أن "القرآن كلام الله" حيث رجح أن المراد ب "الذكر" في قوله تعالى: ﴿مَا

---

(١) [سورة الأنبياء: ٩٨] .

(٢) [سورة الأنبياء: ١٠٠] .

(٣) [سورة الأنبياء: ١٠١] .

(٤) [سورة الأنبياء: ١٠١] .

(٥) [سورة الزخرف: ٥٧] .

(٦) [سورة الزخرف: ٥٨] .

(٧) رسالة في إستحسان الخوض في علم الكلام ص ٩٣، ٩٤ .

يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ﴾[١] هو "كلام الرسول صلى الله عليه وسلم"[٢]، ويؤيده سياق الآيات كقوله تعالى: ﴿هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[٣]، وقد دعم الإمام ترجيحه هذا بآيات أخر أُطلق فيها "الذكر"، وأريد به به "الرسول" يقول الإمام: (إن قال قائل: أليس قد قال الله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[٤] قيل له: الذكر الذي عناه الله ليس هو القرآن، بل هو كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ووعظه إياهم، وقد قال الله لنبيه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] ، وقد قال الله: ﴿ذِكْراً * رَسُولاً﴾[٦] فسمى "الرسول" ذكراً، والرسول محدث، وأيضاً فإن الله يخبر أنه لا يأتيهم ذكر محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، ولم يقل: "لا يأتيهم ذكر إلا كان محدثاً"، وإذا لم يقل هذا لم يوجب أن يكون القرآن محدثاً)[٧] أ.هـ .

قلت: تلك بعض القواعد والضوابط الترجيحية التي سار عليها الإمام الأشعري في توظيف النص القرآني والتي هي بمثابة حائط سد منيع في وجه من يريد لي عنق الآيات القرآنية، وإخراجها عن معانيها السامية، ومقاصدها العالية، وكذا من يتطاول على الإمام بحجة مخالفته منهج الكتاب والسنة، بل كانت تلك القواعد إنما هي بمثابة اللبنة الأولى التي

---

(١) [سورة الأنبياء: ٢] .

(٢) هذا الترجيح أحد الأقوال الواردة في تفسير "الذكر" هنا . ينظر: المحرر الوجيز ٧٣/٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٦٧/١١ .

(٣) [سورة الأنبياء: ٣] .

(٤) [سورة الأنبياء: ٢] .

(٥) [سورة الذاريات: ٥٥] .

(٦) [سورة الطلاق: ١٠: ١١] .

(٧) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٠٢: ١٠٣ .

ولج منها العلماء بعده ليضعوا منهجاً متكاملاً في التعامل مع كتاب ربنا عز وجل، ولله در القائل:

الأَشْعَرِيَّةُ قوم قَد وُفِّقُوا لِلصَّوَابِ ∴ لَم يَخْرُجُوا فِي اعْتِقَادِهِم عَنْ سُنَّةٍ أَوْ كِتَابِ[١]

ثانياً: الاستشهاد بالسنة النبوية، وإجماع الصحابة عند بيان النص أو الاحتجاج به:

إن الإمام الأشعري كما اعتمد "تفسير القرآن بالقرآن" أصلاً من أصول التفسير، فكذلك اعتمد "تفسير القرآن بالسنة النبوية" الأصل الثاني، ومن ثم نجد الإمام بعد أن يستوفي الاستدلال بالقرآن، يلجأ إلى تأكيد ذلك بالحديث النبوي، وإذا "تأملت كتب الحديث المتفق على صحتها كصحيحي البخاري ومسلم وجدته ناطقاً عنهما وناقلاً منهما لم يأت برأي ابتدعه ولا مذهب اخترعه"[٢]، ويوضح الإمام تلك المنهجية التي ألمعنا إليها فمثلاً بعد حشده الآيات التي تثبت رؤية الله – عز وجل – في الآخرة نجده يقول: (ومما يدل على إثبات رؤية الله بالأبصار رواية الجماعات من الجهات المختلفة عن رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَر ليلة البدر، لَا تضارون فِي رُؤْيَتِهِ»[٣]، ورويت

(١) تبيين كذب المفتري ص ١٧٣ .

(٢) عيون المناظرات لأبي علي عمر السكوني ص ٢٢٥، ت: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٦ م .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ٩ / ١٢٧ برقم ٧٤٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما ٤٣٩/١ برقم ٦٣٣ بلفظ قريب من هذا .

الرواية عن رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طرق مختلفة عديدة، عدة رواتها أكثر من عدة خبر الرجم، وإذا كان الرجم وما ذكرناه سنناً عند المعتزلة كانت الرؤية أولى أن تكون سنة؛ لكثرة رواتها ونقلتها، كذا يرويها خلف عن سلف)[١] أ.هـ.

وهكذا كان الإمام الأشعري يحتج بالأحاديث الصحيحة متعمقاً في تحليلها وفهمها، مقلباً النظر فيها على وجوهها المختلفة مبيناً المعاني التي يحتج بها والتي لا ترقى للاستدلال، وكان يرى ضرورة الاستدلال بالحديث الصحيح متواتراً كان أو أحاداً؛ لأنه ما دامت صحة الحديث قد ثبتت بالطرق التي يلتزمها المحدثون في الرواية، فهو حجة في العمل والاعتقاد؛ إذ لا فرق بينهما في الإثبات، ولا معنى لأن نأخذ بالحديث، وننكر الأخذ بمثله في الاعتقاد[٢] .

كما كان يذهب الإمام الأشعري إلى أنه لا ينسخ القرآن إلا القرآن، ولا ينسخ السنة إلا سنة مثلها، فإن وجدت سنة نسخت قرآناً فلا بد أن تجد مع السنة قرآناً يؤيدها، وإن وجد قرآن نسخ سنة فلا بد أن تجد مع القرآن سنة تؤيده، وهو يذهب في ذلك مثل ما ذهب إليه الإمام الشافعي[٣].

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٤٩، ٥٠ .

(٢) ينظر: أعلام وعلماء قدماء ومعاصرون، الشيخ / محمد أبو زهرة ص ٢١٠، ط: دار الفتح، الأردن، الأولى، ١٤٣٠ هـ .

(٣) ينظر: أثر الإمام أبي الحسن الأشعري في منهج التفكير الإسلامي قديماً وحديثاً، أ.د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر ٢/ ٩١ .

وقد اعتمد الإمام الأشعري كثيراً في استدلاله على إجماع الصحابة رضي الله عنهم[١] فنجده يقول: (وأنكرت المعتزلة عذاب القبر أعاذنا الله منه، وقد روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه وما روي عن أحد منهم أنه أنكره، ونفاه وجحده، فوجب أن يكون إجماعاً من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٢] أ.هـ .

كما نرى الإمام أيضاً عند إثبات "الاستواء" لله – تعالى– استواء يليق بذاته المقدسة يستدل بجملة من الأحاديث فيقول: (ومما يؤكد أن الله – عز وجل– مستو على عرشه دون الأشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... إلخ)[٣] أ.هـ .

وكذا في مسألة "القدر، وحال أهل الجنة والنار" يعقب الإمام بعد سرده الأحاديث قائلاً: (وهذه الأحاديث تدل على أن الله علم ما يكون أنه يكون وكتبه، وأنه قد كتب أهل الجنة وأهل النار، وخلقهم فريقين فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، وبذلك نطق كتابه العزيز)[٤] أ.هـ .

مما سبق يظهر للعيان أن الحديث إذا كان ضعيفاً أو مكذوباً لم يرتضه الإمام بل يرده ولا يشتغل به؛ ولذا وجدناه يقول: (ونسلم الروايات الصحيحة عن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي رواها الثقات عدل عن

---

(١) ينظر: كلام الإمام عن الإجماع في مسائل: "الرؤية، والحوض، والشفاعة، ورفع عيسى – عليه السلام – إلى السماء" . الإبانة ص ٥١، ١١٥، ٢٤١، ٢٤٥.

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٤٧ .

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ١١٠ .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٣٣ .

عدل حتى تنتهي إلى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[١]، وأن مذهبه لو كان عدم الاحتجاج إلا بالمتواتر لصرح به، لكن لم أجد له قولاً يخالف ما سبق تقريره فيما اطلعت عليه من مؤلفاته مع العلم أنه لا يمكن أن "يكون خبر الآحاد وحده سنداً لمبدأ من المبادىء الاعتقادية التي كلفنا الله الجزم بها، وذلك من قِبَل أن خبر الواحد محتمل لا محالة احتمالاً ينافي الجزم واليقين، وقد يكون مضمونه مطابقاً للواقع بالفعل، وقد لا يكون كذلك، فكيف يتأتَّى بمثله أيا كانت تلك العقيدة، فلا بد أن ينضم إلى خبر الآحاد مقدمات يقينية كالخبر المتواتر والأدلة العقلية، ومباحث الإلهيات والنبوات والسمعيات في "علم الكلام" قد جاء الحديث عنها مفصلاً في آيات القرآن الكريم، وما جاء في السنة النبوية فهو من مؤيدات القرآن وموضحات مجمله .

وأما ما لم يرد بشأنه نص صريح في القرآن فقد تكفلت بإثباته السنة التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي، ومن ثم فهي تفيد القطع قطعاً"[٢].

ثالثاً: الاعتماد على لغة العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم، ولا يجوز الاعتماد على لغة مستحدثة أو غير فصيحة:

من ينعم النظر في كتب الإمام الأشعري يجد أنه قد احتكم إلى العربية في تحديد معاني الألفاظ، وكان يستشهد بالشعر الجاهلي والإسلامي في إثبات بعض المسائل[٣]، فنراه يرد على "المعتزلة" المنكرين

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٧ .

(٢) ينظر: أشعري أنا ..... عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٤٩: ٥١ باختصارٍ .

(٣) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص ٣٧، ٤٥، حيث أورد في سياق إثبات الرؤية: قول امريء القيس:

==

للرؤية محتكماً إلى اللغة فيقول: (إذا قال قائل منهم: إن البصر في الحقيقة هو بصر العين لا بصر القلب، قيل له: ولِم زعمت هذا؛ وقد سمى أهل اللغة بصر القلب بصراً، كما سموا بصر العين بصراً، وإن جاز لك ما قلته جاز لغيركم أن يزعم أن البصر في الحقيقة هو بصر القلب دون العين، وإذا لم نجز هذا فقد وجب أن البصر بصر العين وبصر القلب)[١] أ.هـ .

وفي موضع آخر يرد على "القدرية" فيقول: (ويقال لهم: إذا قلتم: إن الله أضل الكافرين بأن سماهم "ضالين"، وليس ذلك في اللغة على ما ادعيتموه، فيلزمكم إذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم قوماً ضالين فاسدين بأن يكون قد أضلهم وأفسدهم بأن سماهم "ضالين فاسدين"، وإذا

==

فَإِنَّكُما إِن تُنظِرانِيَ ساعَةً ∴ مِنَ الدَهرِ تَنفَعني لَدى أُمِ جُندَبِ

ونجده يذكر في موضع آخر قول "الخنساء" لما أرادت تبعيد صلحها لمن كان حرباً لأخيها فقرنت الكلام بأمر مستحيل فقالت:

ولا أُصَالِحُ قوْماً كنتَ حَرْبَهُمُ ∴ حتى تعودَ بياضاً حلكة القاري

ونجده أيضاً في سياق الكلام عن "الوعد والوعيد" يستشهد بقول زُهَيْر بن أبي سُلْمَى:

وَمَنْ لَم يُصانِعْ في أُمُورٍ كَثيرَةٍ ∴ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ

وقال: وَمَنْ لاَ يَظلِمِ النّاسَ يُظْلَمِ . ينظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٢٨ .

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٦٠: ٦١ .

لم يجز هذا بطل أن يكون معنى ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[١] الاسم والحكم كما ادعيتم)[٢] أ.هـ .

ولك أن تتعجب من دقة الإمام الأشعري، وحسن فذلكته، وكيف أنه يستدل باللغة مع الجمع بين النصوص الموهمة للتناقض في أسلوبٍ سهلٍ وواضحٍ فيقول: (وإن سأل سائل عن قول الله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾[٣]، فقال: أليس ثمود كانوا كافرين وقد أخبر الله أنه هداهم، قيل له: ليس الأمر كما ظننت، والجواب في هذه الآية على وجهين:

أحدهما: أن ثمود كانوا فريقين مؤمنين وكافرين، وهم الذين أخبر الله أنه نجاهم مع صالح – عليه السلام – بقوله: ﴿نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[٤] فالذين عنى الله من ثمود أنه هداهم هم المؤمنون دون الكافرين؛ لأن الله قد بين لنا في القرآن أنه لا يهدى الكافرين، والقرآن لا يتناقض بل يصدق بعضه بعضاً، فإذا أخبرنا في موضع أنه لا يهدي الكافرين، ثم خبر في موضع آخر أنه هدى ثمود، علمنا أنه إنما أراد المؤمنين من ثمود دون الكافرين .

فإن قال قائل معترضاً في الجواب الأول: كيف يجوز أن يقول: ﴿فَهَدَيْناهُمْ﴾ ويعني المؤمنين من ثمود، ويقول: ﴿فَاسْتَحَبُّوا﴾ يعني الكافرين منهم وهم غير مؤمنين؟

---

(١) [سورة الرعد: ٢٧] .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢١٥ .

(٣) [سورة فصلت: ١٧] .

(٤) [سورة هود: ٦٦] .

يقال له: هذا جائز في اللغة التي ورد بها القرآن أن يقول: ﴿فَهَدَيْناهُمْ﴾ ويعني المؤمنين من ثمود، ويقول: ﴿فَاسْتَحَبُّوا﴾ ويعني الكافرين منهم، وقد ورد القرآن بمثل هذا قال الله:﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[١] يعني الكافرين، ثم قال: ﴿وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢] يعني المؤمنين، ثم قال: ﴿وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾[٣] يعني الكافرين، ولا خلاف عند أهل اللغة في جواز الخطاب بهذا أن يكون ظاهره لجنس والمراد به جنسان، فبطل ما اعترض به ودل على جهله)[٤]أ.هـ.

كما نجد الإمام الأشعري يحتكم إلى اللغة أيضاً في بيان مفهوم "الإيمان" فيقول: (إن قال قائل: ما "الإيمان" عندكم بالله تعالى؟ قيل له: هو التصديق بالله، وعلى ذلك إجماع أهل اللغة التي نزل بها القرآن قال تعالى: ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٥] فلما كان "الإيمان" في اللغة التي أنزل الله بها القرآن هو التصديق وقال الله تعالى: ﴿وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ﴾[٦] أي بمصدق لنا، وقالوا جميعاً: "فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة" يريدون يصدق بذلك، فوجب أن يكون "الإيمان" هو ما كان عند أهل اللغة إيماناً وهو التصديق)[٧] أ.هـ .

---

(١) [سورة الأنفال: ٣٣] .

(٢) [سورة الأنفال: ٣٣] .

(٣) [سورة الأنفال: ٣٤] .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٢٣، ٢٢٤ .

(٥) [سورة الشعراء: ١٩٥] .

(٦) [سورة يوسف: ١٧] .

(٧) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٢٣ .

من خلال ما سبق ظهر لنا أن الإمام الأشعري قد وضع قاعدة جليلة في تفسير القرآن ألا وهي "وجوب الاحتكام إلى العربية في بيان مراد الله عز وجل، وحمله على المعروف من كلام العرب"، ويؤكد على تلك القاعدة فيقول: (ومن أين يمكن أن يعلم بالعقل أن تفسير كذا وكذا مع أنا رأينا الله قد قال في كتابه العزيز الناطق على لسان نبيه الصادق:﴿وَما أَرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(١)، وقال: ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(٢)، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾(٣)، وقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾(٤)، ولو كان القرآن بلسان غير العرب لما أمكن أن نتدبره ولا أن نعرف معانيه إذا سمعناه، فلما كان من لا يحسن لسان العرب لا يحسنه وإنما يعرفه العرب إذا سمعوه على أنهم إنما علموه؛ لأنه بلسانهم نزل، وليس في لسانهم ما ادعوه)(٥) أ.هـ .

وفي سياق آخر يستعين الإمام الأشعري أيضاً باللغة في الرد على تحريف المعتزلة في مسألة «الإضلال الذي نسبه اللهُ إلى نفسه» كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾(٦) حيث قال بعضهم في تفسير هذا النظم

(١) [سورة إبراهيم: ٤] .
(٢) [سورة النحل: ١٠٣] .
(٣) [سورة الزخرف: ٣] .
(٤) [سورة النساء: ٨٢] .
(٥) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٢٨: ١٢٩ .
(٦) [سورة البقرة: ٢٦] .

وأشباهه: «سمَّاهم ضُلاَّلاً»[١]، وإنما كان سبب هذا التأويل زعمهم الفاسد في العدل، وأن الله لا يظلم أحداً، فلا يتصور أن يُضِلَّه وإلا كان ذلك قبيحاً منه، واللهُ منزه عن فعل القبيح، وهذا الكلام صحيح لكن المراد بالقبيحِ وتحديده هو الذي يخالف فيه هؤلاء[٢] يقول الإمام: (ويقال لهم: ما معنى قول الله:﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[٣] فإن قالوا: معنى ذلك: أنه يُسَمِّيهم ضالين، ويحكم عليهم بالضلال، قيل لهم: أليس خاطب الله العرب بلغتها فقال:﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٤]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[٥] ؟ فلا بُدَّ من نَعَم فيقال لهم: فإذا كانَ أنزل اللهُ القرآنَ بلسان العرب، فمن أين وجدتم في لغة العرب أن يقال: أَضَلَّ فلانٌ فلاناً أي: سَمَّاه ضَالاً؟! فإنْ قالوا: وجدنا القائل يقول إذا قال رَجُلٌ لرجلٍ ضَالٍّ: قد ضَلَّلْتُهُ قيل لهم: قد وجدنا العرب يقولون: ضَلَّلَ فلانٌ فلاناً: إذا سَمَّاه ضالاً، ولم نجدهم يقولون: أضَلَّ فلانٌ فلاناً بهذا المعنى، فلمَّا قال اللهُ:﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[٦] لم يجز أن يكون ذلك معنى ذلك الاسم،

---

(١) نسبه العلامة الفخر الرازي إلى قُطْرُب وكثير من المعتزلة . ينظر: التفسير الكبير ٢ / ٣٦٩ .

(٢) ينظر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد الطيار ص ٥٥١: ٥٥٢، ط: دار ابن الجوزي، الأولى، ١٤٣٢هـ .

(٣) [سورة إبراهيم: ٢٧] .

(٤) [سورة الشعراء: ١٩٥] .

(٥) [سورة إبراهيم: ٤] .

(٦) [سورة إبراهيم: ٢٧] .

والحكم إذا لم يجز في لغة العرب أن يقال: أَضَلَّ فلانٌ فلاناً: إذا سمَّاه ضالاً، بطل تأويلكم إذا كانَ خلاف لسان العرب)[1] أ.هـ.

قلت: إن الإمام الأشعري بهذا المنهج قد قرر أن كل تفسير خرج بمعاني القرآن عما تدل عليه ألفاظه أو سياقه مردود على صاحبه، وكان ضرباً من التخرص والتلاعب بكلام ربنا – عز وجل– وليس من التفسير في شيء؛ إذ الألفاظ قوالب المعاني، وإلغاء دلالاتها إبطال للغة المخاطب، وطي لفائدتها، والله أعلم .

رابعاً: **الرد على أهل الأهواء والبدع كان شغله الشاغل، ومحور حياته العلمية، وذلك ليميط الأذى الفكري والعقائدي عن طريق المسلمين**:

المتصفح لعناوين مصنفات الإمام الأشعري يدرك هذا الملمح القوي في المناقشة، وطول النفس في المناظرة، وإفحام المخالفين بالبراهين المناسبة، والحجج القاطعة، ومن مؤلفاته في هذا الصدد:

- كتاب "الفصول": في الرد على الملحدين والخارجين عن الملة كالفلاسفة والطبائعيين والدهريين وأهل التشبيه والقائلين بقدم الدهر، والرد على البراهمة والمجوس،وهو كتاب كبير يشتمل على اثني عشر كتاباً ... إلخ .
- "متشابه القرآن": جمع فيه بين المعتزلة والملحدين فِيمَا يطعنون به في متشابه القرآن والحديث .

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢١٣: ٢١٤ .

- إيضاح البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان .
- الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل .
- الجوابات في الصفات عن مسائل أهل الزيغ والشبهات .
- الجوهر في الرد على أهل الزيغ والمنكر .
- الفنون في الرد على الملحدين .
- خبر الواحد في الرد على ابن الراوندي في إنكار التواتر[١] .

إن الإمام الأشعري يمثل بداية المحاجزة بين الفكر الإسلامي الأصيل، وبين الفكر الوارد الذي مثله أصحاب الاتجاه المشائي أو الأفلاطونية المُحدثة[٢] في العالم الإسلامي آنذاك، وقد كان معاصراً للفارابي (ت: ٣٣٩هـ) الذي كان يلقلب ب "المعلم الثاني"، كما أنه خبر منهج الاعتزال بعمق، وأدرك ما فيه من نقاط الضعف العقلية فضلاً عن كونه يخالف المنهج الإسلامي المعبر عن روح الإسلام وجوهره تعبيراً

(١) تبيين كذب المفتري ص ١٢٨: ١٣٥ .

(٢) «الأفلاطونية المُحدثة»: فلسفة دينية دمج فيها الفكر القديم بما في ذلك فلسفة أرسطو والمشائين والرواقيين والفيثاغوريين، والأفلاطونيين، وهي تحاول إعطاء تفسير للكون والإنسان؛ لتلبية طموحه من النواحي الدينية والعقلية، فعملت على التوفيق بين تلك الفلسفات وبين بعض الآراء الشرقية، واستطاعت أن تكون من ثنائية أفلاطون التي تنطوي على "المثال" "والمادة" الفكرة القائلة بأن الله والطبيعة شيء واحد، وأن الإنسان والكون ليسا سوى مظهر من مظاهر = =الذات الإلهية، "وحدة الوجود" . ينظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د/ عبد المنعم الحفني ٢/ ١٦٣، مكتبة مدبولي، الثالثة، ٢٠١٠م، وتاريخ الفكر الديني الجاهلي، محمد إبراهيم الفيومي ص١٤٩، ط: دار الفكر العربي، الرابعة ١٤١٥هـ .

حقيقياً[١]، كما تصدى الإمام لنظريات الفلاسفة ومن شايعهم فعرضها بكل موضوعية ثم ناقشها وأبطلها بأدلة عقلية منتزعة من القرآن والسنة[٢] .

لقد كان الإمام شديد اللهجة، حاد العبارة في الرد على المخالفين غير هيَّاب لهم، كشف عن عوارهم حتى صار دَيْدَنه وهِجّيراه، فأوسعوه افتئاتاً، واختلقوا عليه الأباطيل ما هو منه براء، وحاولوا تشويه الحقائق التي كان يجليها بأدلتها العلمية الدقيقة، وذهبوا يتعمدون تنكيسها على لسانه[٣]، وقد نقل ابن عساكر أن الإمام الأشعري في تفسيره "لم يترك آية تعلق بها بدعي إلا بطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق، وبيَّن المجمل، وشرح المُشكل"[٤]، ولنتأمل عنوان كتابه في التفسير الذي أسماه "تفسير القرآن، والرد على من خالف البيان من أهل الإفك والبهتان"، ويظهر من اسمه أن موضوعه التفسير الصحيح للقرآن الكريم، ورد الشبهات التي تعلق بها أصحاب الأهواء والبدع في تأويل آي الذكر الحكيم؛ ولذا حكم في كتابه هذا على "تفاسير المعتزلة" بأنه زيغ وضلال، وأشار إلى مصادرهم التي استقوه منها فيقول في مقدمة تفسيره: (أما بعد، فإن أهل الزيغ والتضليل تأوَّلوا القرآن على آرائهم، وفسَّروه على أهوائهم،

---

(١) ينظر: بين العقل والنص في منهج الإمام الأشعري، محمد عبد الستار نصار، ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر ٢ / ١٧٠ .

(٢) ينظر مثلاً: رد الإمام عليهم في قولهم: "إن المخلوقات من فعل الطبيعة" . رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ٨٩ .

(٣) لعل أكثر من شنع على الإمام بالأندلس ابن حزم الظاهري في كتابيه: "النصائح المنجية من الفضائح المخزية"، و"اليقين في النقض على الملحدين، المحتجين عن إبليس اللعين وسائر الكافرين" .

(٤) تبيين كذب المفتري ص ١١٧ .

تفسيراً لم يُنزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين ولا عن السلف المتقدمين من الصحابة والتابعين ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾[١]، وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبي الهذيل ومتبعيه، وعن إبراهيم نظَّام الخرز ومقلديه، وعن الفُوطي وناصريه، وعن المنسوب إلى قرية "جُبى" ومنتحليه، وعن الأشج جعفر بن حرب ومجتبييه، وعن جعفر بن مبشر القصبي ومتعصبيه، وعن الإسكافي الجاهل ومعظميه، وعن الفروي المنسوب إلى مدينة "بلخ" وذويه، فإنهم قادة الضلال من المعتزلة الجهال، الذين قلدوهم في دينهم، وجعلوهم معولهم الذي عليه يُعوِّلون، وركنهم الذي إليه يستندون، ورأيت الجبائي ألَّف في تفسير القرآن كتاباً أوَّله خلاف ما أنزل الله، وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجُبي، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روى في كتاب حرفاً عن أحد من المفسِّرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيراً من العوام، واستنزل به عن الحق كثيراً من الطغام، لم يكن لتشاغلي به وجه)[٢] أ.هـ .

قلت: هكذا خص الإمام الأشعري المعتزلة بالنصيب الأوفر من نشاطه العلمي؛ لأن معظم كتبه يرد فيها على شيوخهم، محللاً خطابهم تحليلاً علمياً دقيقاً، كاشفاً تمويههم وشبههم مستعيناً بكتاب الله – تعالى – وسنة

---

(١) [سورة الأنعام: ١٤٠] .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ١٣٨، ١٣٩، ثم قال ابن عساكر: "إسناد هذه الحكاية مضيء كالشمس ورواتها لا يخالج في عدالتهم شك فِي النفس، وقائلها أبو بكر إمام كبير ومحله عند أهل العلم محل خطير" أ.هـ .

رسوله – صلى الله عليه وسلم – ، وما هداه إليه عقله ورشده يقول الصيرفي (ت: ٤٦٦هـ): (كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم فى أقماع السمسم)[١]، ومن ثم حذر الناس من الالتفاف حولهم، والاغترار بهم، ودعا إلى مجانبة المبتدعين فقال: (ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة، ومجانبة أهل الأهواء)[٢] ، وكان يستعين أحياناً في القيام بتلك المهمة ببعض أصحابه حيث ألمح ابن النديم (ت: ٤٣٨هـ) إلى هذا فقال: (ومن أصحابه: الدمياني وحمويه: من أهل سيراف، وكان يستعين بهما على المهاترة والمشاغبة، وقد كان فيهما علم على مذهبه ولا كتاب لهما يُعرف)[٣]، ثم حمل راية المذهب بعد الإمام الأشعري أعلام لهم وزنهم وثقلهم العلمي منهم: الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ)، والإسفراييني (ت: ٤١٨هـ)، وإمام الحرمين الجويني (ت: ٤٧٨هـ)، والإمام الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ)، وأبو بكر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، والإيجي (ت٧٥٦هـ) وغيرهم من أئمة المذهب وأعلامه، كما دان بمعتقده، وسار على دربه جمع غفير من العلماء تدريساً وتعليماً، ويشهد بذلك الواقع العملي كأولئك الحفاظ الذين هم رؤوس أهل الحديث أمثال: الإسماعيلي (ت: ٣٧١هـ)، والبيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، والإمام ابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، والنووي (ت: ٦٧٦هـ) وغيرهم من السادة الأعلام والأئمة العظام .

ويا حبذا لو اتخذ من منهج الإمام الأشعري مثالاً يحتذى به في المناهج التعليمية مع تكوين جبهة علمية تتفرغ لمتابعة ما يثار على

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٤٩ .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ٣٤ .

(٣) الفهرست ص ٢٢٥، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الثانية ١٤١٧ هـ .

الساحة من شبهات حول القرآن وعلومه مع حسن توظيف اللغات العالمية، فهذا بلا شك يسهم في صد الحملات التي تحاول النيل من كتاب ربنا، ويكون سداً منيعاً لمواجهة الغزو الفكري الذي طال الإنسانية جمعاء.

خامساً: القول بالمجاز في تفسير آي الذكر الحكيم "تأويل النصوص المتشابهة":

يمكن استنتاج أن الإمام الأشعري كان يرى وقوع المجاز في اللغة، وأن الكلمة في حد ذاتها شاهد على وقوع المجاز فيها(١)، وما ذهب إليه الإمام يتقوى بأقوال أئمة اللغة(٢) والأصوليين(٣)، ولا شك أن القول بوجود المجاز في العربية إنما هو توطئة للقول بوجوده في لغة القرآن؛ إذ هو منزل بلغة العرب وعلى طريقتها في صوغ كلامها، وإنشاء عباراتها؛ لذا فالمنصوص عليه أن الإمام كان يقول بورود المجاز في القرآن ولم يبالي بالاعتراضات التي وجهت إليه ككونه يخالف الحقيقة أو لأنه ناشئ عن اضطرارٍ، وقد نقل ابن فُورَك عن الإمام ذلك فقال: (وكان يقول: إن استعمال اللفظ في القول بأنه مجاز مجاز، وذلك أن أصل معنى "المجاز" من التجوز، ومن قولهم: "جزت المكان": إذا عبرته، قال: ذلك إذا استعمل في القول فتوسع في العبارة وليس بحقيقة .

---

(١) ينظر: مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، تأليف/ محمد بن الحسن بن فورك ص ٢٤ .

(٢) ينظر: الكتاب، سيبويه ١ / ٢١٢، ت: عبد السلام هارون، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة، ١٤٠٨ هـ .

(٣) ينظر: الإبهاج في شرح المنهاج للسُبكيَّان ١ / ٢٧٣، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥ م .

وإنما يقال لبعض الألفاظ إنها مجاز على أنه تجوز به عما وضع له إلى ما لم يوضع له، وهذا مثل قوله تعالى جده: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾[١] وذلك أن "المكر" يقع فيهما لا لهما، فإذا أضيف إليهما فالمعنى أن "المكر" يقع فيهما، وكقوله عز وجل: ﴿جِداراً يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ﴾[٢]، ولا إرادة في الحقيقة للجدار)[٣] أ.هـ .

ثم علق ابن فُورك على قول الإمام السابق فقال: (والأظهر من مذهبه أن الأصل هو الحقيقة في الأقوال، وأن المجاز توسع، وأن المجاز يعرف بدليل من عقل أو سمع أو حال مقترنة)[٤] أ.هـ .

وهذا يعطي ملامح منهج الإمام الأشعري، ويحدد كيفية تعامله مع النصوص الموحية بالتجسيم أو التشبيه، وأن محاولة نفي القول بالمجاز والتأويل عن الإمام وقصرهما على متأخري المذهب هي محالة لا تؤيدها الدلائل ولا الشواهد الحية من تصريح الإمام نفسه .

ومن يطالع تراث الإمام الأشعري يجد أن له رأيين في الصفات الخبرية[٥]:

---

(١) [سورة سبأ: ٣٣] .

(٢) [سورة الكهف: ٧٧] .

(٣) مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري ص ٢٤، ٢٥، ورسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١٢٢ .

(٤) مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري ص ٢٥ .

(٥) أشار الناظم إلى ذلك في تحفة المريد ص ١٠٣، فقال:

وَكُلُّ نَصٍ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا ∴ أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهَا

الأول: القول بالتفويض وعدم الخوض في الآيات والأخبار التي يوهم ظاهرها التشبيه، فنؤمن بها على جهة الإجمال مع تنزيه الله – تعالى – عن الاتصاف بشيء من سمات النقص[١] كما هو رأي السلف، وذلك لرجوح أدلة التنزيه، ونلمح هذا في حكاية الإمام لجملة قول أصحاب الحديث[٢] .

يقول الإمام الأشعري: (فمن سألنا فقال: أتقولون إن لله وجهاً؟ قيل له: نقول ذلك، خلافاً لما قاله المبتدعون، وقد دل على ذلك قوله تعالى:﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣]، قد سئلنا أتقولون إن لله يدين؟ قيل: نقول ذلك بلا كيف[٤]، وقد دل عليه قوله تعالى:﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٢])[٣] أ.هـ .

---

(١) وجدت الإمام الأشعري يحشد الأدلة من القرآن والسنة والإجماع واللغة والفطرة التي تثبت أن الله – تعالى – مستو على عرشه، ولم يفتأ يكرر: "استواء يليق به من غير طول استقرار"، "استواء منزهاً عن الحلول والاتحاد"، "بلا كيف ولا استقرار"، "لا يزيده قرباً من العرش" . الإبانة عن أصول الديانة ص ١٠٥، ١١٣، ١١٧، ١١٩ .

(٢) ينظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص ٢٢٦: ٢٢٩ .

(٣) [سورة الرحمن: ٧٢] .

(٤) إن عبارة "بلا كيف" أشارت د/ فوقية حسين محمود محققة "الإبانة" أنها ساقطة من نسختي الأزهر ودار الكتب، بل هي ساقطة من نسخة الأزهر (١) التي أشارت إليها المحققة ل ١٣/ أ، وساقطة من نسخة الأزهر (٢) ل ١٤/ ب، والطبعة الهندية ص ٨، وطبعة المنيرية ص ٩، ونسخة قُصي ص ٩، ومن النصوص التي نقلها ابن عساكر في "تبيين كذب المفتري" ص ١٥٨، والتي نقلها ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" ٥/ ٩٨، والتي نقلها ابن القيم في "اجتماع الجيوش ==

الثاني: التأويل: الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى صحيح لقرينة، وهذا الذي يتوافق مع مذهب الخلف، وهو قول أكثر المتكلمين(٤)، والمحققين كالعز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ)، وتلميذه ابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ)(٥)، وتأويل تلك الآيات بعضها نسب إلى الإمام مباشرة، وبعضها داخل في مذهبه ووفق منهجه وإن لم ينص عليها صراحة، فرأي المذهب يؤخذ من كتب أصحابه أيضاً، و"أهل مكة أدرى بشعبها" .

وقد ورد عن الإمام الأشعري تأويل "المعية" في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾(٦) ب "العلم" استناداً إلى الإجماع حيث قال: (وأجمعوا على أنه – عز وجل – يعلم السر، وأخفى من السر، ولا يغيب عنه شيء في السماوات والأرض حتى كأنه حاضر مع كل شيء، وقد دل الله – عز

==

الإسلامية" ٢/ ٢٨٩، ٢٩٨، وابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" ٤/ ١٣٢، وما اجتمعت عليه أكثر النسخ المخطوطة والمطبوعة أولى بالاعتماد من نسخة "بلدية الإسكندرية" التي يكثر فيها الحشو والزيادات من النُسَّاخ، بل أرى أنه يجب حذف تلك العبارة ؛ لأنها أقحمت في الصلب . ينظر: نظرات في كتاب "الإبانة عن أصول الديانة"، فتحي عبد الرازق ١/٣٠٢: ٣٠٤ .

(١) [سورة التوبة: ١٠١] .

(٢) [سورة ص: ٧٥] .

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٢٤: ١٢٥ .

(٤) نص عليه الإمام النووي . ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦ / ٣٦ .

(٥) ينظر: المسامرة بشرح المسايرة في علم الكلام، لابن الهمام ص ٣٦، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر، الأولى، ١٣١٧ هـ .

(٦) [سورة الحديد: ٤] .

وجل- على ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[١]، وفسر ذلك أهل العلم بالتأويل أن علمه محيط بهم حيث كانوا)[٢] أ.هـ .

قلت: الإمام الأشعري قد جمع بين التفويض والتأويل، فهو يؤول إذا لم يمكن حمل النص على ظاهره وفق ضوابط وأصول اللغة، ولا يقال بأن هذا الجمع غير ممكن؛ إذ ليس جمع للضدين بل هو رفع لهما؛ إذ المقرر أن الضدين لا يجتمعان ولكن قد يرتفعان؛ لذا لا يلزم من الأخذ بالتفويض والتأويل معاً تناقض عقلي يقول الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ): (جميع فرق الإسلام مقرون بأنه لا بد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار)[٣] أ.هـ .

وهذا المنهج قد استمده الإمام الأشعري من القرآن الكريم؛ إذ التفويض يتوافق مع قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] وغيره من النصوص، و"التأويل" يتوافق مع اللغة التي نزل بها كتاب ربنا – عز وجل – جارياً على طريقة العرب في التعبير والإنشاء قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٥]، وهذه اللغة تحتضن الحقيقة

---

(١) [سورة الحديد: ٤] .

(٢) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ١٣١، ١٣٢.

(٣) أساس التقديس ص ٧٩، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م .

(٤) [سورة الشورى: ١١] .

(٥) [سورة يوسف: ٢] .

والمجاز، والاستعارة والكناية، وموجبات التأويل، وهذا المذهب قد ورد عن السلف الصالح ومتأخريهم، من ذلك:

- ما صح من تأويل الإمام أحمد "جاء" في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[١] بمعنى "أمر ربك"[٢] كما قال ربنا: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[٣]، وفي رواية "أنه جاء ثوابه"[٤] .

- ومن ذلك أيضاً تأويل ابن حجر(ت: ٨٥٢هـ) قول سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ضحك الله الليلة، أو عَجِبَ مِن فِعَالِكُمَا»[٥] حيث قال: (ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما الرضا بصنيعهما، وقد تأوَّل البخاري "الضحك" في موضع آخر على معنى "الرحمة" وهو قريب، وتأويله على معنى "الرضا" أقرب؛ فإن الضحك يدل على الرضا والقبول)[٦] أ.هـ .

---

(١) [سورة الفجر: ٢٢] .

(٢) أورده ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢ / ١٣٢ .

(٣) [سورة النحل: ٣٣] .

(٤) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ١٠ / ٣٢٧ عن البيهقي عن الحاكم، ثم قال البيهقي: "وهذا إسناد لا غُبَارَ عليه"، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧ هـ .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾ ٥ / ٣٤ برقم ٣٧٩٨ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦ / ٤٠ ، و ٧ / ١٢٠ .

كما ذكر ابن حجر عن ابن بطَّال (ت: ٤٤٩هـ) بعد كلام طويل في معنى "الاستواء" ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾[١] فقال: (وأما تفسير ﴿اسْتَوَى﴾: "علا" فهو صحيح، وهو المذهب الحق، وقول أهل السنة؛ لأن الله – سبحانه – وصف نفسه بالعُلَى)[٢] أ.هـ .

– وقد تأول كذلك سيدنا ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٣] بأنه "كناية عن شدة الأمر"[٤] فقد أخرج البيهقي عنه بسندين كل منهما حسن[٥] أنه سُئِلَ عن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٦] قَالَ: «إذا خُفِيَ عليكم شيء من القرآن، فابْتَغُوهُ من الشعر، فإنه ديوان العرب»، أما سمعتم قول الشاعر:

.... ∴ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقْ[٧]

---

(١) [سورة طه: ٥] .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣ / ٤٠٦ .

(٣) [سورة القلم: ٤٢] .

(٤) وهو قول جمهور أهل اللغة وغريب الحديث نص عليه النووي . ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣/ ٢٧ .

(٥) حسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ١٣ / ٤٢٨، وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢ / ٥٤٢ برقم ٣٨٤٥، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ"، ووافقه الذهبي: وقال: "صحيح" .

(٦) [سورة القلم: ٤٢] .

(٧) البيت لم أقف على قائله في مظانه، وهو بلا نسبة في كتب التفسير وعلوم القرآن . ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن ٢٣ / ٥٥٤، والبحر المحيط ١٠ / ٢٤٧، والدر المنثور ٨ / ٢٥٤ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هذا يوم كرب وشدة" .

وقال غيره من أهل التفسير والتأويل أي: "عن الأمر الشديد"، وأنشدوا:

قَدْ شَمَّرَتْ عَن سَاقِهَا فَشُدُّوا ∴ وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُم فَجِدُّوا[١][٢] .

هذه طائفة من صفات الله وأفعاله الواردة في القرآن وصحيح السنة، وقد تأولها السلف تأويلاً تفصيليلاً، ولم يقفوا عند «أَمِرُّوهَا كما جاءت بلا كيف»، كما أن كتب التفسير[٣] والحديث[٤] طافحة أيضاً بهذا، فلو كان في تلك التأويلات ما يستلزم تعطيلاً أو تعسفاً أو مخالفة للغة لما أقدم عليه أعلام السلف، وقد خص د/ عبد العظيم المطعني ابن تَيْمِيَّةَ (ت: ٧٢٨ هـ) بفصلٍ مستقلٍ ضمن كتابه «المجاز في اللغة والقرآن الكريم» تتبع فيه كثيراً المواقف التي أوَّل فيها الإمام ابن تَيْمِيَّةَ نصوص

(١) شعر قيس بن زهير ص ٤٤، ت: عادل جاسم البياقي، الناشر: مطبعة الآداب، النجف الأشرف، بغداد، ١٩٧٢ م .

(٢) الأسماء والصفات ٢ / ١٨٣ .

(٣) ينظر: جامع البيان ٢٢ / ٤٨٨، المحرر الوجيز ٢ / ٢١٥، ٢١٦، تفسير القرآن العظيم ٧ / ٣٠٥، روح المعاني ١٤/ ٤٠، التحرير والتنوير ٢٧ / ٨٤، معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الأولى.

(٤) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ٢٢ / ٢٠٢، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ٩/ ١٠٧، ط: المطبعة الكبرى الأميرية، السابعة، ١٣٢٣هـ، وإكمَال المُعْلِم بفَوَائِدِ مُسْلِم لِلقَاضِي عِيَاض ٧/ ١٨٣، ط: دار الوفاء، مصر، الأولى، ١٤١٩ هـ .

القرآن والحديث[١] وإلا كان التشبث بالمعاني الظاهرية لبعض النصوص مزلقة من مزالق الكفر[٢]، وهذا ما عناه العلامة السنوسي (ت: ٨٩٥هـ) وهو يُعدِّد أصول الكفر: (والجهل المركب، والتمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية، والقواطع الشرعية للجهل بأدلة العقول وعدم الارتباط بأساليب العرب)[٣] أ.هـ .

ثم إن هناك نصوصاً لا يمكن بحالٍ أن يقال فيها إلا بالتأويل، فلم يقبلونه فيها بينما يرفضونه في الباقي؟! يقول مرعي الحنبلي (ت: ١٠٣٣هـ): (قال الخطابي: الكلام في الصفات ثلاثة أقسام: ... وقسم يؤول ولا يجرِي على ظاهره كقوله إخباراً عن الله: "مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تقربت إِلَيْهِ ذِرَاعاً"[٤] لَا أعلم أحداً من العلماء أجراه على ظاهره بل كل منهم تأوَّله على "القبول من الله لعبده، وحسن الإقبال عليه، والرضا بفعله، ومضاعفة الجزاء له على صنعه)[٥] أ.هـ .

---

(١) ينظر: المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع ٢ / ٨٦٥، ط: مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٠هـ .

(٢) ينظر: أشعري أنا ..... عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٥٨ .

(٣) حاشية الدسوقي على أم البراهين ص٢١٧، ط: دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة .

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروايته عن ربه ٩ / ١٥٧ برقم ٧٥٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها ٤ / ٢١٠٢ برقم ٢٦٧٥ .

(٥) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات ص ١٨٢، ١٨٣، ت: شعيب الأرناؤوط، ط: الرسالة، الأولى، ١٤٠٦ هـ .

مما سبق اتضح لنا أن الإمام الأشعري قد قرر أن كل ما هو داخل في المتشابه من آيات الصفات يجب فهمه على ظاهره، وتفسيره بمعناه الحقيقي دون كيفٍ، ولا يصح إخراج شيء منه إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة مع وجود حجة لا محيص عنها كما نص على ذلك في "الإبانة"(١).

ومن يدقق النظر يجد أنه ليس ثمة تعارض بين التفويض- الذي هو الأصل- وبين التأويل؛ لأن التفويض تأويل إجمالي حيث يقطع المفوض أن الظاهر المتبادر من اللفظ غير مراد لكنه لا يخوض في تفصيل المعنى المراد(٢)، لكن هذا التأويل ليس عشوائياً بل محاطاً بسياج من الضوابط والشروط:

الأول: أن يكون المعنى الذي حمل عليه النص ثابتاً لله تعالى .

الثاني: أن لا يكون حمل النص على المعنى الذي صُرف إليه يخالف أساليب اللغة العربية .

الثالث: أن لا يكون المعنى الذي صُرف إليه النص يوهم النقص لله تعالى، بل مشعر بالعظمة له سبحانه(٣) .

الرابع: حتمية الاحتكام إلى السياق في دراسة المتشابهات بحيث لا يخالف سياق النص بل يكون مناسباً له: يقول السبكي (ت:٧٥٦هـ):

---

(١) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص ٤٠، ١٣٩، ١٤٠.

(٢) ينظر: إمام أهل الحق أبو الحسن الأشعري، د/ عبد القادر محمد الحسين ص ٦٩، ط: المشرق للكتاب، دمشق، الأولى، ١٤٣١ هـ .

(٣) منهج الأشاعرة فى العقيدة بين الحقائق والأوهام، محمد صالح بن أحمد الغرسي ص ٢٤٦، ط: دار القادري، ٢٠٠٨ م .

(وانظر إلى هذه الصفات التي يثبتها هذا المبتدع لم تجئ قط في الغالب مقصودة، وإنما في ضمن كلام يقصد منه أمر آخر؛ وجاءت لتقرير ذلك الأمر، وقد فهمها الصحابة ولذلك لم يسألوا عنها النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأنها كانت معقولة عندهم بوضع اللسان، وقرائن الأحوال، وسياق الكلام، وسبب النزول؛ وانظر إلى أكثرها لا تجده مقصوداً بالكلام بل المقصود غيره, إما بسياق قبله أو بسياق بعده، أو بأن يكون المحدث عنه معنى آخر والمحدث به، ويكون ذلك مذكوراً على جهة الوصف المقوي لمعنى ما سبق الكلام لأجله)[١] أ.هـ .

الخلاصة: إن القول بالمجاز عند تأويل النصوص المتشابهة بما يتوافق مع قواعد اللغة والقياس ... إلخ لا يمكن بحالٍ أن يقال فيه إنه تجاوز لمذهب السلف الذين لم يؤولوا[٢]، كما أنه لا يمكن وسمه بالبدعة أيضاً؛ إذ الحاجة قد دعت إليه وفرضته الثقافة السائدة آنذاك، ولعل من نافلة القول أذكر ما قاله د/ حموده غرابله وهو يوضح أنه لا تناقض بين ما ذهب إليه الإمام الأشعري في كتابيه "الإبانة واللمع": (الواقع أنني لا أرى أي تناقض بين الصورة التي يحددها "الإبانة" وبين الصورة التي يحددها "اللمع"؛ لأن الرد على المعتزلة والحرورية والجهمية في إنكارهم "الوجه واليدين والاستواء على العرش" في "الإبانة" مع السكوت عن ذلك في "اللمع" لا يعتبر تناقضاً؛ لأن الأشعري يتناقض حقاً إذا نفى ذلك نفياً قاطعاً

---

(١) السيف الصَّقِيلُ في الرد على ابن زَفِيل ص ١١٩، تحقيق: العلامة/ محمد زاهد بن الحسن الكوثري، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٣ م .

(٢) هذا على حسب زعم المخالف وإلا فقد ورد عن بعض السلف الصالح ومتأخريهم التأويل كما سبق ذكره .

في كتابه "اللمع" ولكن الرجل لم ينف بل سكت، والسكوت عن تقرير رأي في مؤلف لا يعتبر مناقضاً لتقريره في مؤلف آخر ... إلخ)[١] أ.هـ .

سادساً: الجمع بين النقل والعقل عند الاستدلال[٢]:

كان أهل السنة قبل الإمام الأشعري في جمود شديد حيث يرون أن علم الكلام بدعة مذمومة، وأنه يجب الوقوف عند دليل النقل، ولا يصح التأويل فيه، ولا العدول عنه إلى الأدلة العقلية المنطقية، فلم يشاركهم الإمام هذا الجمود، ورأى أنه يجب أن يستعان في إثباتها بأساليب علم الكلام، وأن تقام عليه الأدلة العقلية مع النقلية مع الأخذ بعقائد أهل السنة، وأنه لا يصح أن يحجم عن الرد على المخالف بزعم أن فيه إذاعة لشبهته؛ إذ المعتزلة كانت تعتمد على العقل خاصة في المسائل الكلامية، ويؤولون النصوص القرآنية عندما يجدونها مخالفة لآرائهم . بزعمهم . ولا يكادون يعتمدون على السنة، فالإمام لم يتطرف في التأويل العقلي كالمعتزلة، ولم يستهجن البحث الكلامي كالحنابلة، بل أراد أن يستخدم هذا "المنهج العقلي" وهو بلا شكٍ مستنبط من القرآن الكريم، فخرج مذهبه من بين فرث ودم سائغاً صافياً للسالكين، وسطاً معتدلاً بين المنهجين، فلفت أنظار علماء عصره وحكمائه ومثقفيه، ونال إعجابهم وتقديرهم، ولقي من الحُكام تأييداً وحُظوة، فصار مذهب جمهور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يبق لمذهب القدامى من أهل السنة أثر إلا بعض

---

(١) مقدمة تحقيق اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٨ .

(٢) نستشف تلك السمة عند الإمام الأشعري من خلال كلامه في المسائل المختلف فيها حيث كان – غالباً– يمزج بين روح النص والعقل، وهذا من أبرز ما يتميز به الإمام بين أقرانه، وقد سبق ذكر نماذج في المبحث الثاني فليراجع هناك .

المتشددين من الحنابلة، ولم يبق لمذهب المعتزلة أثر إلا بين بعض فرق الشيعة[١]، فهو لم يُغال في إعمال العقل إلى درجة إلغاء النصوص، ولم يغرق في ظواهرها إلى مستوى إهمال نتائج الفهوم والعقول، بل كان وسطاً بين هذا وذاك، فهو يستند إلى النصوص لما فيها من العصمة من الزيغ والضلال؛ لأنها الوحي الإلهي المقدس ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾[٢] .

لقد حدد الإمام الأشعري بدقة وموضوعية مواطن توظيف النقل، ومظان إعمال العقل، فبيَّن أن «حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع التي طريقها السمع، وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه، ولا تخلط العقليات بالسمعيات، ولا السمعيات بالعقليات»[٣] .

كما بحث الإمام الأشعري في كثير من العقليات والحسيات لما وجد أن المعتزلة والفلاسفة بحثوا عنها بلسان ذلق، وذكاء بارز[٤]؛ إذ هذا واجب لرفع الشبهة، وتثبيت الحجة، وإزالة الشك والحيرة من نفوس

---

(١) ينظر: المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر، عبد المتعال الصعيدي ص ١٢٢، ١٢٣ بتصرف يسير، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .

(٢) [سورة النجم: ٣: ٤] .

(٣) رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام ص٩٥ .

(٤) الجزء الثاني من كتاب «مقالات الإسلاميين» يبحث عن الجسم والجواهر، والجوهر الفرد، والطفرة، والحركة والسكون وغيرها من المباحث التي يبحث عنها في الفلسفة العامة والطبيعيات، وهي مباحث شاعت بعد نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية .

المسلمين وحتى يكونوا على بينة برأي المخالفين[١]، فالرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –والصحابة – رضي الله عنهم – وإن لم يتكلموا فيها إلا أن القرآن قد ذكر أصولها الدالة عليها مجملة غير مفصلة يقول الإمام: (إن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يجهل شيئاً مما ذكرتموه من الكلام في الجسم والعرض والحركة والسكون والجزء والطفرة وإن لم يتكلم في كل واحد من ذلك معيَّناً وكذلك الفقهاء والعلماء من الصحابة غير أن هذه الأشياء التي ذكرتموها معينة أصولها موجودة في القرآن والسنة جملة غير مفصلةٍ)[٢] أ.هـ .

إن هذا المنهج الذي سار عليه الإمام الأشعري – وهو إدراك النص في ضوء العقل، أو السير وراء العقل في حدود الشرع – فيه رد للمنهج الذي يجعل العقل هو الأساس، والنص تابعاً له بل أوغل في العقلانية إيغالاً خلق حالة من التناقض بين نصوص الوحي والعقل، فأنكروا المعجزات والصفات، أو الذي يذهب إلى أن العقل والنص معاً كل منهما أساس للآخر؛ لأن هذا يستحيل تصوره، ورد أيضاً لدعوى من يرى أن العقل وحده هو المنهج الذي لا ينبغي ألا يزاحمه آخر حتى ولو كان المزاحم نصاً قطعي الثبوت كالقرآن الكريم كما هو الحال لدى بعض الشيعة الذين يرون أن الإمام المعصوم هو الحجة في الاستدلال، وفي

(١) ينظر: بحث مقالات الإسلاميين للأشعري بقلم: أ.د/ أحمد فؤاد الأهواني ص ٣٦١، سلسة تراث الإنسانية، المجلد الثاني، ديسمبر، ١٩٦٤ م .

(٢) استحسان الخوض في علم الكلام ص ٨٩ .

المقابل رد أيضاً لدعوى أولئك الذين تحجرت عقولهم فلم يقبلوا إلا النص وحده، والذي قادهم إلى الوقوع في ورطة التشبيه والتجسيم[١] .

من هنا يعلم أن دور العقل عند الإمام الأشعري يتمثل في إدراك مضامين النص الإلهي، وتجلية غوامضه، وإزاحة غواشي اللبس عنه، وأن العقل إذا وصل إلى حده الذي لا يتأتَّى له تجاوزه، ولا يتمكن فيما وراءه كان لا بُدَّ بحكمٍ من العقل ذاته أن يستسلم للخبر الصادق؛ إذ الإجماع معقود على أن صحيح المنقول متفق دائماً مع صريح العقول .

فالعلاقة بين العقل والنقل إذاً علاقة التكامل والتآخي، ومن ثم فمن جرؤ على إهدار العقل وإغفاله بالكلية سقط الكلام معه، وتردى بداهة في الدور الفاسد، ومن تجاسر على إهمال النص وإطراحه بالكلية، فإنه يوشك أن يخلع ربقة الإسلام، ولما كان مؤمناً بسيد الأنام، وما أنزل عليه من ربه[٢].

قلت: إن مذهب الإمام هو الحق الذي محيص عنه؛ إذ لجأ إليه بحكم تطور عصره، واحتكاك المسلمين آنذاك بالديانات، والثقافات الأجنبية، فرأى أن الجمود على النص يعجز عن القيام بواجب الدفاع عن العقيدة وحمايتها من هجمات خصومها، وما أشبه اليوم بالبارحة خاصة في ظل مناهج إلحادية وعلمانية وحداثية متابينة تريد أن تخطف الإنسان، وتجرفه عن هدي السماء، فالعقل إذا ترك وحده ضل سعيه، وخاب أمله، واتبع

---

(١) ينظر: بين العقل والنص في منهج الإمام الأشعري، محمد عبد الستار نصار ٢ / ١٥٧، وأبو الحسن الأشعري، د/ حموده غرابه ص ٧٦، ٨٣، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣ م .

(٢) ينظر: أشعري أنا ..... عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٤٨ .

هواه خاصة فيما وراء الطبيعة قال ربنا: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى * أَن رَآهُ اسْتَغْنى﴾[١] لكن بالشرع يتبع هداه، وفرق بين الهوى المضل، وبين الهدي الذي يعصم من الزلل والعثار، وبذلك مد الإمام الأشعري جسور التعاون بين مختلف المذاهب، وأخذ منها مزاياها، ونقاط قوتها، وخرج بمنهج متألق استطاع أن يؤسس فيه للانسجام بين العقلانية والنصية، وصد أيضاً أبواق المتطرفين والإرهابيين الذين يستقطبون الشباب ويربوهم على مبدأ "السمع والطاعة" العمياء دون أدنى نقاش أو استفسار، والله أعلم .

سابعاً: الشمول والواقعية، والموضوعية، واستمرار الفاعلية:

إن مذهب الإمام الأشعري الذي أصبح مذهب أهل السنة، وارتضاه جمهرة المسلمين منذ القرن الرابع حتى الآن لم يكن ليظفر بهذا التأييد إلا لأنه اعتمد على أسس عقلية، وأدلة منطقية تسع الجميع؛ لأن فكر الإنسان لا يستطيع أن ينعزل عن ثقافة عصره السائدة، ولا بد أن يصل بين الموضوعات الدينية وبين الإطار العام للثقافة الجارية، وقد كان الطابع العام لتلك الثقافة في عهده هو الفلسفة التي كانت تضم تحت جناحيها علوماً شتى، فإذا طرحت مسألة في أصول الدين مثل "رؤية الله" أهي ممكنة أم غير ممكنة، فمن البدهي أن يخضع الإنسان وهو يفكر في هذه المسألة لمباحث الرؤية الطبيعية، وكيف تشاهد العيون من تراه أمامها، وذلك بحسب ما وصل إليه "علم النفس" آنذاك، وكذا الأمر في مباحث الزمان والمكان، والحركة والجسم، والنهاية واللانهاية وغير ذلك[٢].

---

(١) [سورة العلق: ٦: ٧] .

(٢) ينظر: بحث مقالات الإسلاميين للأشعري بقلم: أ.د/ أحمد فؤاد الأهواني ص٣٦٦.

لقد امتاز منهج الإمام الأشعري في الاستدلال بالنصوص بسهولة التناول، وتقريب المعاني، وتلك ضرورة اقتضتها مخاطبته العوام والخواص على السواء، وهذا يتوافق مع الفِطَر السليمة، والعقول القويمة؛ ولذا التزم علماء المذهب بهذه المنهجية حتى إن بعضهم في بلدان المغرب العربي حرروا العقيدة الأشعرية باللسان الأمازيغي، وكانوا يأتون كل قوم بلغتهم(١)، وقد استوفى الإمام القول عن أصول عقائد أهل السنة في مباحث علم الكلام "الإلهيات والنبوات والسمعيات" مما أسهم في تجديد طرائق النظر إلى العقيدة، وبيان أصول العقائد بصفة تستوعب التراث الإنساني المعاصر له، وترشده إلى الغايات الإسلامية، وهو في كل ذلك قد استعصم ببيان القرآن الكريم، وهدي سيد الأنام، وفهوم السلف العظام؛ ولذا كتبت لطريقته القبول، وها هو اليوم يقدر أيضاً على مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة، وردع النزعات المتنطعة(٢) .

كما التزم الإمام الدقة والموضوعية في نقل آراء الفرق الإسلامية مخالفاً بذلك حال المؤلفين الذين اتسم منهجهم بالقصور آنذاك، بل كان هذا القصور المنهجي – الذي لاحظه الإمام – سبب إقدامه على صناعة كتابه "مقالات الإسلاميين" حيث صرح في مقدمته بذلك فقال: (ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات من بين مقصر فيما يحكيه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه،

(١) ينظر: الإمام الأشعري، وواقعنا المعاصر، عبد الكبير العلوي المدغري ٣ / ٣١٩.

(٢) ينظر: واقعية المنهج الكلامى عند الإمام الأشعري ودورها فى مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة، إبراهيم محمد زين، ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر ٣ / ٢٢، ٢٣ بتصرف يسير .

ومن بين معتمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه، ومن بين تارك للتقصي في روايته لما يرويه من اختلاف المختلفين، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين)[١] أ.هـ.

إن الإمام الأشعري قد قام بمسحٍ دقيقٍ هو أقرب لواقع حال ما عليه المتدينون بالإسلام، وتحري أن يعطي تقريراً لما عليه تلك الفرق في زمانه، فهو لا يشتط بالدخول في التفاصيل التي تخرجه عن موضوعه، وكذلك لا يختزل تلك التفاصيل في تعميمات لا تدل على معرفة بواقع الحال[٢].

ومن أبرز ما يدل على واقعية منهج الإمام الأشعري رفضه "التقليد في باب العقائد"[٣]؛ لأنه يعطل ملكة النظر، ويسلب حرية الإنسان؛ فيؤمن بما لا يقنع به، ويكتفي بترديد ما يسمع دون فهم أو وعي، وهذا المنهج فيه تقدير للذات في تحمل تبعات الاعتقاد، وتكريم للإنسان حيث يجعل الإيمان قناعة شخصية ينبع من القلب - فلا تهزه العواصف ولا تنجرف به

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص ٢١ .

(٢) ينظر: واقعية المنهج الكلامى عند الإمام الأشعري ودورها فى مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة ٣/ ٤٤ باختصارٍ .

(٣) المراد بالتقليد هنا: "التقليد الرديء الذي نشأ عنه كفر صريح مجمع عليه، وهو تقليد الجاهلية آباءهم في الشرك، وعبادة الأصنام" . ينظر: شرح المقدمات للسنوسي ص ١١٤، ت: نزار حمادي، ط: مكتبة المعارف، الأولى، ١٤٣٠ هـ، ويستفاد من كلام ابن فُورك أن الإمام الأشعري يرى وجوب النظر دون أن ينقل عنه تكفير العوام بسبب ترك النظر؛ إذ هم غالب المؤمنين . ينظر: مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري ص ٣٢، ٢٩٩ .

الريح – وليس مجرد زخرف قول يتلقنه فيردده كالبَبْغَاوات، عندئذٍ يشعر العبد بذاته، وأن نيته وعمله مقصود، فيتنافس في الخيرات، ويتسابق في الطاعات، ويتجنب المنكرات .

إن هذا القول الذي أيده الإمام يتفق مع نصوص الشريعة التي أعطت للعبد حرية العقيدة، وأمرته بالتفكر، وإعمال عقله، وحذرته من التقليد الأعمى، وما توارد فيه من نعي على أولئك الذين عطلوا وسائل المعرفة والإدراك ولم يعقلوا الدلائل المبثوثة في الكتاب المنظور وهي أكثر من أن تحصى قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(٢) .

(١) [سورة الكهف: ٢٩] .

(٢) [سورة يونس: ١٠٠] .

✍ المبحث الثالث

أثر منهج الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني على واقع الأمة الإسلامية

بعد عرض منهج الإمام الأشعري، وبيان أبرز سماته العامة في استدلاله بالنص القرآني، وموقفه من القضايا التي طرحت على الساحة في عصره تبيَّن للجميع أنه كان له عظيم الأثر على العامة والخاصة، بل ما زِلْنَا ندين له بالفضل حتى اليوم، وفيما يلي لمحة موجزة عن أثر توظيفه النص القرآني على واقع الأمة قديماً وحديثاً:

أولاً: حفظ الأمة الإسلامية، ووحد صفها ، ولم شملها، وصانها من الشتات:

كان التمزيق الفكري في نهاية القرن الثالث الهجري قد استفحل استفحالاً عظيماً حتى خشي الناس على وحدة المسلمين حيث طرأ عليهم سيل عارم من التغيرات والتحولات حتى أصبحوا بعد أن كانوا أمة واحدة، تضمهم راية واحدة يصدق فيهم قول النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَن تَتَدَاعَى عَلَيْكُم كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَة إِلَى قَصْعَتِهَا[1]»[2]، وأصبح

---

(١) «القَصْعَة»: وعاء يؤكل ويُثْرَد فيه, وكان يتخذ من الخشب غالباً, أي: يتناولون منها بلا مانع ولا منازع, فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وصَفْوًا, كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعبٍ ينالهم, أو ضرر يلحقهم, أو بأس يمنعهم . عون المعبود شرح سنن أبي داود لابن حيدر، العظيم آبادي ١١ / ٢٧٢، الناشر: دار الكتب العلمية، الثانية، ١٤١٥ هـ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام ٤ / ١١١ برقم ٤٢٩٧، وسنده صحيح .

المسلمون يلتمسون بصيصاً من النور والأمل يجمعهم على كلمة سواء، والإمام الأشعري كان واعياً بتلك المخاطر التي اصطرعت داخل الأمة حيث التيارات والمدارس الكلامية، والأخطار الخارجية جراء الفتوحات الإسلامية التي تتنامى، فاهتدى هذا العبقري إلى الحلول الوسطى التي تجمع وتقرب، وتسدد بين هذه الفرق، ولم يكن إلى جانبه سلطان يؤيده، ولا طائفة تنصره، ولم يكن رجلاً محتالاً على الناس ليؤيدوه، لكنه نصر مذهب أهل السنة فنصره الله ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[١]، وتقبل مذهبه في العقيدة المالكية والشافعية وطائفة من الأحناف على المذهب الماتريدي أيضاً، كما تبعه كبار المحدثين والمحققين من الأصوليين[٢] حتى أطلق على عقيدته: "عقيدة السواد الأعظم"[٣] حيث جمع الناس بعد تشرذمهم، ورأب الصدع بين مذاهبهم الكلامية ببيان الحق الذي اجتمعت عليه في عصره .

يقول الإمام السبكي: (أَنا أعلم أَن المالكية كلهم أشاعرة لَا أستثني أحداً، والشافعية غالبهم أشاعرة لَا أستثني إِلَّا من لحق منهم بتجسيم أَو اعتزال مِمَّن لا يعبأ الله به، والحنفية أكثرهم أشاعرة أعني يعتقدون عقد الأشعري لَا يخرج منهم إِلَّا من لحق منهم بالمعتزلة،

---

(١) [سورة محمد: ٧] .

(٢) عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في الإبانة، مجد مكي، ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر ٣٨٢/٢ .

(٣) عقيدة الإمام الأشعري مذهب السواد الأعظم من المسلمين في الأصول، مصطفى بن عبدالرحمن العطاس ص ٥٨، ط: دار الأصول، اليمن، تريم، حضرموت، بدون تاريخ .

والحنابلة أَكثر فضلاء متقدميهم أشاعرة لم يخرج منهم عن عقيدة الأشعري إِلَّا من لحق بأَهل التجسيم)[١] أ.هـ .

هذا، وقد ارتكز عمل الإمام الأشعري – رحمه الله – على الآتي:

– الخروج بالمسلمين من دائرة الخلاف، والتعصب للرأي أو الشخص أو المذهب، والعودة بالمسلمين إلى مصادر دينهم من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح .

– التوفيق بين الآراء المتقاربة، وإبطال غيرها بالمنطق والحجة حتى يفيء إلى الحق أصحابها .

– الموازنة بين الأقوال المتقابلة، والخروج برأي وسطٍ بينها يكون أقرب إلى الحق .

– الجمع بين الفقه والكلام والحديث والتصوف وحسن التوفيق بين أصحابها .

– الجمع بين منهج النقل والعقل حيث رأى أن خير الأمة أن يلتقي العقليون والنصيون على مذهب وسط يوحد القلوب، ويعيد الوحدة إلى الصفوف مع احترام النص والعقل معاً[٢] .

بهذه الثمرات المباركة التي لبَّى فيها الإمام الأشعري نداء ربه – عز وجل – بالإعراض عن السبل التائهة المتعرجة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٧٧، ٣٧٨ .

(٢) ينظر: التوازن الفكري عند أبي الحسن الأشعري وأثره في الأمة والمجتمع، عبد الرحمن المراكبي، ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر ٣ / ١٣٥، ونشأة الأشعرية وتطورها، د/ جلال محمد عبد الحميد موسى ص١٨٦: ١٨٨، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ م .

مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]، كان ممدوداً بمددٍ من السماء كما بُشر بذلك في رؤياه «إن الله سيمدك بمدد من عنده»[٢]، وحفظ للأمة وحدتها، وللمسلمين جماعتهم، وللعلماء ألفتهم ومحبتهم، وجدد للمسلمين أمر دينهم، وتلك نظرة واعية تدل على الفهم الصحيح للدين، بعيداً عن التعصب كما هو الشأن عند اتباع المذاهب الذين يُبدِّعون ويُفسقون، بل يكفرون – دون تريث ولا تثبت– لمجرد المخالفة في المذهب، ويجعلون الخلاف في الفروع كأنه خلاف في الأصول، ويقيمون معارك في غير ميادين في وقت قد توافرت فيه أسباب توحيد كلمتنا، واتحاد صفوفنا، والكف عن رمي التهم والتراشق بما لا يليق خاصة على المواقع الإلكترونية، والأبواق الإعلامية التي لا يُراعى فيها أدب الخلاف، ولا منهج الحوار .

إن هذا التسامح هو الذي ألَّف الناس حول الإمام الأشعري، وجعل أنصاره يدَّعون أنهم لا يشكلون فئة جديدة أو بدعة جاءت بعد غيرها، بل يرون أنهم هم المسلمون حقاً، وأن تعليمهم هو مذهب السنة في الإسلام، فخمدت جذوة تلك الفرق الضالة، ومُنيت بالهزيمة الفكرية، ولم يكن سبيل ذلك خنقاً للحريات، ولا إسكاتاً للألسن، ولا تجريماً للأفكار، وإنما كان سبيل ذلك الحوار العلمي المتحرر عن أسبقيات العصبيات المذهبية، والأحقاد النفسية، والمغانم الدنيوية، وشاءت إرادة الله أن يكون الإمام الأشعري هو رائد الحوار، وقائد الدعوة إلى تحكيم العلم، والرجوع إلى هدي القرآن والسنة، فكان في إقبال السادة العلماء من مختلف التخصصات،

---

(١) [سورة الأنعام: ١٥٣] .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٤٩ .

ودعمهم له، وسيرهم وراءه ما أعاد منهج أهل السنة والجماعة وتيارهم إلى البروز، وفاعلية الحُكم والتوجيه[١] .

واليوم .. ليس بيننا وبين أن يعود هذا التيار – تيار أهل السنة – إلى الفاعلية والتأثير، وجمع الكلمة سوى أن تصمت العصبيات، وينطق العلم صافياً عن الشوائب، وأن يسود الإخلاص لله، ويغيب ميزان الأهواء والمصالح، والله أعلم .

ثانياً: مواجهة قضايا التكفير، وأبرز الأفكار الهدامة، والاتجاهات المنحرفة:

تعد قضية التكفير من القضايا الخطيرة التي عانت منها الأمة، وما تزال تذوق ويلاتها، وتتجرع مرارتها حتى اليوم، بل صارت ظاهرة اجتماعية منظمة تعتمد على آليات وشبكات واسعة، ونتجت عنها آراء استباحت الدماء، وتسببت في أزمات وكوارث أثقلت كاهل المجتمعات، وشوهت صورة الإسلام في عيون الآخرين[٢] .

إن الناظر في القرآن الكريم يدرك إقراره مبدأ التنوع بين بني البشر قال ربنا: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٣]، وكأن هذا الاختلاف هو مصدر ثرائهم،

---

(١) ينظر: أثر الإمام أبي الحسن الأشعري في منهج التفكير الإسلامي قديماً وحديثاً ص ١٠٦، ١٠٧ .

(٢) ينظر: نحو توظيف فكر الإمام أبي الحسن الأشعري في حياتنا المعاصرة، محمد إدير مشنان، ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر ٣ / ٣٢٩ .

(٣) [سورة هود: ١١٨: ١١٩] .

وأساس ازدهارهم، وعجلة نموهم؛ ولذا تتعدد خطاباته وتتنوع وفق حال المخاطب، كما أنه لم يكن منهج نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام الفرقة والخلاف بل الاعتصام والائتلاف ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[١]، وهذا ما دعا إليه الإمام وسعى فى تحقيقه، فرغم وطأة رده على الفرق الضالة لكنه أظلها ووسمها بطابع الإسلام وليست بخارجة عنه حيث يقول: (اختلف الناس بعد نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشياء كثيرة ضلل فيها بعضهم بعضاً، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقاً متباينين، وأحزاباً متشتتين إلا أن الإسلام يجمعهم، ويشتمل عليهم)[٢] أ.هـ .

لقد كانت بعض الفرق تتعامل مع قضية "التكفير" قبل الإمام الأشعري بخفة ورعونة منقطعة النظير، فطرد هذه النزغات المتطرفة التي صدرت عنهم حيث «ابتعدت عن مقاصد الشرع، وصارت إلى وحشة الشذوذ العقدي، مخالفة بذلك فضيلة الاتباع والانتفاع»[٣] كالخوارج[٤]،

---

(١) [سورة آل عمران: ١٠٣] .

(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص ٢١ .

(٣) ينظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ص ٧٣ .

(٤) «الخَوَارِج»: يقال لهم الْحَرُورِيَّة، والنواصب، والشُراة: كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه سواء كان الخروج أيام الصحابة، أو كان بعدهم في كل زمان، وهم الذين خرجوا على عَلِي بْن أَبِي طالب في معركة صفين، وأجمعوا على أمرين: أحدهما: إكفارهم لعَلِي وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما، وأصحاب الجمل، والحَكَمين وكل من رضي بهما، ثانيهما: كل من أذنب ذنباً من هذه الأُمة هو كافر مخلد في النار. ينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١١٤، وموسوعة ==

والمرجئة: الذين يقولون بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة[١]، وبهذا سلك الإمام مسلكاً وسطاً بيَّن من خلاله أن الإيمان هو القول باللسان، والتصديق بالجنان، وأن العمل بالأركان من فروعه، وجعل مرتكب الكبيرة تحت المشيئة الإلهية مع القطع بعدم تكفيره[٢] حسبما دل عليه قول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشاءُ﴾[٣] .

يقول الإمام: (وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه ما لم يستحله كالزنا والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج، وزعمت أنهم كافرون، ونقول: إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبهها مستحلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً)[٤] أ.هـ .

ومن تتبع تاريخ المذهب الأشعري وتطوره وتطبيقاته يلحظ أن الاتجاه نحو عدم التكفير مبدأ أصيل فيه حيث ذهب الإمام إلى إثبات الشفاعة لأهل الكبائر؛ إذ تواترت بذلك الأدلة فيقول: (فإن سألوا عن قول

==

الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، د/ عبد المنعم الحفني ص ٢١٥، ٢١٦، ط: دار الرشاد، القاهرة، الأولى، ١٤١٣هـ .

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص ٨٤، ١٢٤ .

(٢) أشار الناظم إلى ذلك في تحفة المريد ص ٢٠٦، ٢٠٧ فقال:

إِذْ جَـــائِزٌ غُفْـــرَانُ غَيْـــرِ الْكُفْـــرِ ∴ فَـــلاَ نُكَفِّـــرُ مُؤْمِنًـــا بِالْـــوزْرِ

وَمَـن يَمُـت وَلَـم يَتُـب مِـنْ ذنْبِـهِ ∴ فَأَمْـــرُهُ مُفَـــوَّضٌ لِرَبِّـــهِ

(٣) [سورة النساء: ٤٨] .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٦ .

الله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾[١]، فالجواب عن ذلك: إلا لمن ارتضى لمن يشفعون له، وقد روي أن شفاعة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكبائر)[٢] أ.هـ .

لقد وقف الإمام الأشعري بالمرصاد أمام هؤلاء الغالين المبطلين القائلين بخلود عصاة المسلمين فيقول: (وقنطوا الناس من رحمة الله، وآيسوهم من روحه، وحكموا على العصاة بالنار والخلود فيها، وزعموا أن من دخل النار لا يخرج منها، خلافاً لما جاءت به الرواية عن رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله يخرج قوماً من النار بعد أن امْتَحَشُوا[٣] فيها"[٤])[٥] أ.هـ .

كما كان الإمام الأشعري يدين بجواز الصلاة خلف كل بر وفاجر، والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة، وإنكار الخروج بالسيف، وترك القتال في الفتنة، وجواز الصدقة على موتى المسلمين، والدعاء لهم، ويؤمن بأن الله – سبحانه – ينفعهم بذلك[٦] إلى غير ذلك مما ينبىء

---

(١) [سورة الأنبياء: ٢٨] .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٤٤ .

(٣) «امْتَحَشُوا»: المَحْش: احتراق الجلد، وظهور العظم أي: احترقوا . النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤ / ٣٠٢، ط: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٨ / ١١٥ برقم ٦٥٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج المُوَحِّدين من النار ١ / ١٧٢ برقم ١٨٤ .

(٥) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٧ .

(٦) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٩، ٣١ .

عن اعتداله، ومجابهته للأفكار المتطرفة التي تُفرِّق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني، وتألب النفوس والقلوب .

إن هذا المنهج الوسطي الذي اعتمده الإمام الأشعري نبراساً تنتهجه الأمة عبر تاريخها المديد، ولذا كان الإمام أول من استخدم مصطلح "الإسلاميين" في التراث الإسلامي برمته؛ ليفند بذلك دعاوى التيارات المتناحرة عبر العصور من كونها الفرقة الناجية وسائر التيارات الأخرى هي الضالة المنحرفة روى ابن عساكر بسنده عن أبي علي زاهر السرخسي (ت: ٣٨٩ هـ) أنه قال: (لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داره ببغداد دعاني فأتيته فقال: أشهد عليَّ أني لا أكفر أحداً من أهل هذه القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف عبارات)[1] أ.هـ.

بفضل تلك الوسطية والفهم السديد من الإمام الأشعري لتلك القضية الوعرة - ؛ لأن الإيمان أصل أصيل، وكما دخله الإنسان بيقين لا يخرج منه إلا بيقين، فلا يعبأ بالتهم التي تلقى جزافاً- انتشر مذهبه، وذاع صيته، ولمع نجمه، وساد ربوع المعمورة يقول العلامة الكوثري: (وفقه الله لجمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، وقمع المعاندين، وكسر تطرفهم، وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم، فأجاب عنها، فطبق ذكره الآفاق، وملأ العالم بكتبه، وكتب أصحابه في السنة، والرد على أصناف المبتدعة والملاحدة، وتفرق أصحابه في بلاد العراق

(١) تبيين كذب المفتري ص ١٤٩، وقد استحسن الإمام الذهبي تلك المقولة وأعجبته، ونص على ثبوتها، بل ذكر أنه يدين بها. سير أعلام النبلاء ١٥ / ٨٨، ط: الرسالة، الثالثة، ١٤٠٥ هـ .

وخراسان والشام وبلاد المغرب، ومضى لسبيله، وبعد وفاته بيسير استعاد المعتزلة بعض قوتهم، لكن الإمام الباقلاني قام في وجههم، وقمعهم بحججه، ودان للسنة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية)[١] أ.هـ .

قلت: إن الإمام الأشعري بهذا المنهج المستمد من نصوص الذكر الحكيم أثار الأمل، وبعث الرجاء في نفوس الحيارى من المسلمين، واستحضر نوازع التصالح والتقارب بين المخلوق والخالق، فلا يشعر المسلم بالضغوط التي تطارده بالتكفير والخروج من عباءة الإسلام كلما قارف معصية أو خالط إثماً، بل يجعله دائماً بين الخوف والرجاء، فما أحوجنا - اليوم – إلى هذا الفقه المقاصدي من أجل تخفيف حدة الصراعات، وإخماد جذوة المعارك الفكرية المصطلمة، وإشاعة الطمأنينة، وترميم الشروخ، وإزاحة الحواجز بين المسلمين للوصول إلى حل وسطي يحقق مصلحة الأمة .

ثالثاً: **تأثر المفسرين بالمنهج الأشعري قديماً وحديثاً**:

إن اعتقاد المفسر له أثر بالغ في تفسيره، فإذا كان المفسر أشعرياً فإن تفسيره لا يخرج عن السمات العامة لمنهج الإمام الأشعري، وإن كان غير ذلك ظهر أيضاً أثر معتقده في تفسيره، وقد دان جمع غفير من المفسرين بالمذهب الأشعري، فطفحت تفاسيرهم بتأييده، وساروا على مذهبه خاصة في "باب الصفات" فعند تعرضهم لها في الآيات التي وردت فيها يؤولونها أو يفوضون العلم فيها لله – تعالى – وغيرها من المسائل

(١) تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص ١٥، ت: الشيخ/ محمد زاهد الكوثري، ط: دار الفكر، دمشق، الثانية، ١٣٩٩ هـ .

التي ذهب إليها الإمام الأشعري فمثلاً: الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[١] يقول: (فاله علي بالاقتدار، ونفوذ السلطان، وعلي عن الأشباه والأمثال، فمعنى "العلو في وصف الله": اقتداره وقهره، واستحقاقه صفات المدح)[٢] أ.هـ.

كما فسر الواحدي "الإيمان" بمعنى "التصديق"[٣] على طريقة السادة الأشاعرة وذلك عند تفسير قول ربنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤]، ويذهب في قضية "خلق أفعال العباد" مثلما ذهب الإمام الأشعري فعند تفسير قول الحق: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾[٥] يقول: (واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله، وكذلك الأفعال المتولدة من اكتساب العباد، وقالوا: الرمي فعل واحد أضافه الله إلى نبيه، وأثبته له ثم وصف به نفسه، وكان من الله الإنشاء والإيجاد بالقدرة القديمة، ومن الرسول الحذف والإرسال، وهكذا جميع أفعال العباد المكتسبة، من الله الإيجاد، ومن العباد الاكتساب)[٦] أ.هـ .

---

(١) [سورة البقرة: ٢٥٥] .

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١ / ٣٦٨، ٣٦٩، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الأولى، ١٤١٥ هـ .

(٣) ينظر: التفسير البسيط ١٠/ ١٨، ط: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى، ١٤٣٠هـ .

(٤) [سورة الأنفال: ٢] .

(٥) [سورة الأنفال: ١٧] .

(٦) التفسير البسيط ١٠ / ٦٩ .

وكما أثر الإمام الأشعري في المفسرين القدامى كذلك ظهر تأثيره في المُحدثين منهم فنجد الشيخ / ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) يتفق مع السادة الأشاعرة في جل القضايا التي ذهبوا إليها فعند تفسير قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾[١] يناصر مذهبهم في قضية "خلق أفعال العباد" فيقول: «فكان مذهب الأشاعرة أسعد بالتحقيق، وأجرى على طريق الجمع بين ما طفح به الكتاب والسنة من الأدلة»[٢]، وكذا في "مرتكب الكبيرة"[٣]، وتأويل "الصفات"[٤] ومن يطالع تفسيره يجد ذلك جلياً دون معاناة .

وفيما يلي رصد لأبرز المفسرين الذين دانوا بمعتقد الإمام الأشعري، وتأثروا به في تفسيرهم:

العلم	اسم تفسيره
الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)	تفسير القرآن العظيم – التفسير الكبير
أبو الليث السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)	بحر العلوم
أبو إسحاق الثعلبي (ت:٤٢٧هـ)	الكشف والبيان عن تفسير القرآن
مكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧هـ)	الهداية إلى بلوغ النهاية
أبو الحسن الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ)	النكت والعيون
أبو القاسم القشيري (ت: ٤٦٥ هـ)	لطائف الإشارات
البغوي (ت: ٥١٦ هـ)	معالم التنزيل في تفسير القرآن

(١) [سورة البقرة: ٧] .

(٢) التحرير والتنوير ١ / ٢٥٧ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١ / ٢٧٤ .

(٤) من ذلك تأويل "الاستواء" بالاستقرار في قوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾، و"الوجه": بالذات في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ . ينظر: التحرير والتنوير ١٦ / ١٨٧ و ٢٠ / ١٩٧ .

أبو بكر بن العربي (ت: ٥٤٣ هـ)	أحكام القرآن
ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦ هـ)	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز
ابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ)	زاد المسير في علم التفسير
فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦ هـ)	مفاتيح الغيب = التفسير الكبير
شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١ هـ)	الجامع لأحكام القرآن
ناصر الدين البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ)	أنوار التنزيل وأسرار التأويل
حافظ الدين النسفي (ت: ٧١٠ هـ)	مدارك التنزيل وحقائق التأويل
علاء الدين الخازن (ت: ٧٢٥ هـ)	لباب التأويل في معاني التنزيل
نظام الدين النيسابوري (ت: ٧٢٨ هـ)	غرائب القرآن ورغائب الفرقان
ابن جزي الغرناطي (ت: ٧٤١ هـ)	التسهيل لعلوم التنزيل
أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٥٤ هـ)	البحر المحيط في التفسير
السمين الحلبي (ت: ٧٥٦ هـ)	الدر المصون في علوم الكتاب المكنون
بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)	البرهان في علوم القرآن
ابن عرفة (ت: ٨٠٣ هـ)	تفسير ابن عرفة
جلال الدين المحلي (ت ٨٦٤ هـ)	تفسير الجلالين
عبد الرحمن الثعالبي (ت: ٨٧٥ هـ)	الجواهر الحسان في تفسير القرآن
ابن عادل (ت ٨٨٠ هـ)	اللباب في علوم الكتاب
برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ)	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور
جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ)	الإتقان، الدر المنثور في التفسير بالمأثور
أبو السعود أفندي (ت: ٩٥١ هـ)	إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
الخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧ هـ)	السراج المنير
إسماعيل حقي البروسوي (ت:١١٢٧هـ)	روح البيان في تفسير القرآن
أحمد بن عجيبة (ت: ١٢٢٤ هـ)	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

محمد الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ)	مناهل العرفان في علوم القرآن
أحمد مصطفى المراغي (ت:١٣٧١هـ)	تفسير المراغي
محمود شلتوت (ت: ١٣٨٣ هـ)	تفسير القرآن الكريم
محمد الطاهر بن عاشور(ت:١٣٩٣هـ)	التحرير والتنوير
محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤ هـ)	زهرة التفاسير
حسنين محمد مخلوف (ت: ١٤١٠ هـ)	كلمات القرآن تفسير وبيان
محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨ هـ)	خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي
أ.د/ محمد سيد طنطاوي (ت:١٤٣١هـ)	التفسير الوسيط للقرآن الكريم

قلت: إن هذا الجمع الغفير من المفسرين القدامى والمحدثين لهو أعظم دليل على صحة منهج الإمام الأشعري، فيا ليت شِعري لم تنقم عليه تلك القلوب القاسية، وتنفض عنه أرباب الطباع الغليظة، فهل تستطيع هذه الخِراف الضالة اليوم أن تتنكب لهذا الإجماع الذي انعقد عليه هؤلاء الأئمة الأعلام ؟! وأكاد أجزم أن ما من علم إلا وفيه ربَّات الخدور اللاتي لا ينكشفن على غير المحارم، وصدق ابن حجر الهيتمي (ت: ٩٧٤هـ) حينما سُئل عن الإمام ومذهبه فقال: ("الأشاعرة": لا يعتقد ضلالتهم إلا أحمق جاهل أو مبتدع زائغ عن الحق، ولا يسبهم إلا فاسق)[١] أ.هـ .

(١) الفتاوى الحديثية ص ١٤٦، الناشر: دار الفكر .

✍ خاتمة

أحمد الله – عز وجل – على نعمه وآلائه، وأصلي وأسلم على نبيه ومصطفاه سيدنا محمدٍ وآله وصحبه ومن والاه، يا رب من جعل الحمد خاتمة النعمة جعلها الله فاتحة المزيد، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسألك – سبحانك – أن توفقني للحق، وتجنبني مزالق الزلل، وأنت حسبي ونعم الوكيل،،، وبعد: فعقب هذه الرحلة الماتعة التي عِشْتُ فيها مع علم من أعلام أهل السنة: "الإمام الأشعري"، وبعد هذا العرض المقتضب لمنهجه في توظيف النص القرآني في الرد على الملحدين والمخالفين أدلف إلى تسطير أبرز النتائج التي توصل إليها بحثي هذا .

أهم نتائج البحث:

أولاً: ترك الإمام الأشعري – رحمه الله – ثروة علمية ضخمة، منها ما وصل إلينا، ومنها ما هو مفقود، لكن يعد كتابه "تفسير القرآن" – المفقود – هو تاج تفكيره، ونهاية ما وصل إليه في مذهبه، وتعد كتبه الأخرى روافد لهذا التفسير(١)، وهذا النتاج العلمي الهائل يحتم علينا توظيفه بما يناسب روح العصر، ومتطلبات الناس؛ إذ الأعمال العلمية إذا لم تجد طريقها لعقول الناس وقلوبهم، ولم تستجب لتطلعاتهم، سيلحقها الإهمال والكساد، ويكتفى بوضعها في رفوف المكتبات ولا يتعامل معها إلا ثلة من الباحثين والدارسين .

---

(١) ينظر: بحث مقالات الإسلاميين للأشعري بقلم: أ.د/ أحمد فؤاد الأهواني ص ٣٦٢.

ثانياً: من المواقف التربوية في حياة الإمام الأشعري "المراجعة الفكرية" التي تخلى فيها عن آرائه الاعتزالية بعد أن صار إماماً يشار إليه بالبنان، فمراجعة الإمام نموذجاً يحتذى به في هذا الشأن حيث حرص على البحث عن الحقيقة، وأذعن لها بعد اكتشافها، ودافع عنها ونشرها، وأيدها ببراهين المنقول والمعقول، وهذا المسلك يفتح المجال أمام مراجعات متعددة لأشخاص أو جماعات تنكبت جادة الصواب، وتريد أن تفيء إلى الحق .

ثالثاً: منهج الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني منهج تكاملي لا إفراط فيه ولا تفريط حيث جمع بين النقل والعقل، فلا تصادم بينهما إطلاقاً عند الإمام؛ إذ العقل يسلمه إلى النص الذي أيقن أنه كلام الله – تعالى– أو كلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إنه يستعين بالعقل للوقوف على مضامينه ومعانيه، فالعقل عند الإمام يسير في ركاب النص خادماً له لا حاكماً عليه كما هو الشأن عند المعتزلة والفلاسفة، وهذا المنهج هو الأوفق للحق، والأقرب للصدق، والأرجى لجمع كلمة المسلمين، وائتلاف فرقهم، وجمع شتاتهم، وخير الأمور الوسط، وما عداه شطط! .

رابعاً: قيض الله للإمام الأشعري بعد وفاته من ينافح عنه، ويرد كيد المتطرفين فكرياً الذين ساقهم جهلهم وعصبيتهم على مخالفة أصول مذهبهم لا سيما في آيات الصفات، فناصبوا العداء للإمام،

واختلقوا أموراً لم يقل بها قط؛ ترويجاً لشبهاتهم، وستراً لجهلهم وغلوهم[١] .

خامساً: الإمام الأشعري اعتمد في الاستدلال بالنص القرآني الفهم العقلي الواضح لطبيعة هذا النص من حيث استحضار النصوص التي تتحدث عن موضوع واحد في إطار يجمع أطرافها بحيث يفسر بعضها بعضاً، وهذا ما يقرره علم "أصول التفسير" في حدود الدلالات اللغوية الصحيحة، وهو منهج قائم على الموضوعية الصارمة دون أن تحكمه الانتقائية أو الجزئية كما هو ديدن كثير من الفرق المنحرفة، والخِراف الضالة التي تنكَّبت سلوك الجادة المنجية.

سادساً: الإمام الأشعري قد غلب عليه الأخذ بمصطلحات القرآن الكريم ولم يتجاوزها، ف "نظرية الكسب"[٢] التي نص عليها إنما هي مأخوذة من كلام ربنا– سبحانه – حسبما دلت عليه النصوص ﴿لَها مَا

---

(١) انبرى للرد عليهم، والكشف عن جنوحهم عن منهج السلف، وضوابط الكتاب والسنة كثير من أئمة الدين، ولعل من خير ما كتب في الدفاع عن الإمام: الإمام ابن عساكر في كتابه "تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري"، ورسالة "زجر المفتري على أبي الحسن الأشعري" للإمام القرطبي، ولما وقف عليها الحافظ ابن دقيق العيد قرظها، وكذا "براءة الأشعريين من عقائد المخالفين" لأبي حامد بن مرزوق أخرجه مؤلفه في مجلدين .

(٢) "نظرية الكسب" عند السادة الأشاعرة: "اقتران قدرة العبد بالفعل دون أن يكون لقدرته تأثير البتة" . ينظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني ص ١٥٩، ط: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٠ هـ .

كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾[١]، ولم يجنح إلى مصطلح "الاختيار" أو "القصد" أو "العزم" مثلما قال به غيره، كما نجده يدلل على صحة بعض القواعد الأصولية من خلال الآيات القرآنية[٢] .

سابعاً: أصالة المنهج الأشعري، وخلوه من كل أنماط الفكر الدخيل الوارد، بل ما حدث هو العكس في ذلك حيث كشف عوار المناهج الأخرى التي استفادت منه، واستدبرت أصولها التراثية، وبعرض منهجه على الميزان العلمي المحكم نجد أن الإمام لم ينشىء عقيدة جديدة، وإنما أظهر ما كان عليه سلف الأمة، ونصره وأزال ما تراكم عليه من رواسب، وناقش الضجيج الذي أحدثته الفرق والطوائف التي ظهرت على مسرح الأحداث آنذاك[٣] .

ثامناً: استخدم الإمام الأشعري جملة من القواعد والضوابط الترجيحة وأعملها في الاستدلال بالنص القرآني، فكانت تلك الضوابط والآليات بمثابة حائط سد منيع لمن يريد لي عنق الآيات القرآنية، وتطويعها لمعتقده أو خدمة مذهبه، وإخراجها عن معانيها

---

(١) [سورة البقرة: ٢٨٦] .

(٢) مثل استدلال الإمام على صحة "جواز تكليف ما لا يُطاق" . ينظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١١٣، ١١٤ .

(٣) يقول الإمام البيهقي عنه: (لم يحدث فى دين الله حَدثاً، ولم يأت فيه ببدعة بل أَخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة فى أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين ... ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة كأبي حنيفَة وسفيان الثوري والأوزاعي وَمَالك والشافعي وكأحمد بن حنبل) . أ.هـ . طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٩٧ .

السامية، ومقاصدها العالية، وقد كانت تلك القواعد والضوابط فتحاً مبيناً، ونبراساً مضيئاً لمن جاء بعده من العلماء .

تاسعاً: الإمام الأشعري وهبه الله – عز وجل – عبقرية فذة حيث جاء بالحلول السنية لكثير من المشكلات العويصة التي أثارتها الفرق المتناحرة، وكانت عاملاً رئيساً في تمزيق المسلمين كالرؤية والصفات، والقول بخلق بالقرآن ... إلخ، فالإمام هضم النص واستوعبه، وحرر محل النزاع بين الأطراف المتخاصمة، وفك جهات التعارض، وذلك ببيان موطن الاتفاق والاختلاف، فذهب معظم الخلاف، وقوى الله به السنة، وقمع به البدعة، ورد به الشبهة، فكان خير خلف لخير سلف، وكان بحقٍ إمام أهل السنة(١) .

عاشراً: يلحظ أن استدلال الإمام الأشعري بأقوال أهل التأويل كان على جهة العموم دون أن ينص على أحد منهم، ولم يشر– غالباً– إلى أي كتاب من كتب التفسير، وهذا يدل على أنه كان يكتب مما ترسخ في ذهنه، وما تجود به قريحته، نتيجة قراءاته الكثيرة، وتبحره الواسع.

---

(١) ونديده الإمام أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) حيث شكلا معاً مذهب أهل السنة والجماعة، وقد جمع ابن السبكي المسائل الخلافية بينهما في "ثلاث عشرة مسألة، وبيَّن أن الخلاف لفظي لا يترتب عليه فائدة" . طبقات الشافعية ٣/٣٨٤، وللشيخ / زاده رسالة أسماها: "نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد" .

حادي عشر: الإمام الأشعري قد مر بمرحلة يتعامل فيها مع النصوص تعاملاً ظاهرياً لا يؤول شيئاً منها، وهذا المنهج يعبر عنه كتاب "الإبانة"؛ وتلك خطوة ضرورية، ومرحلة انتقالية لتأكيد براءتِه من الاعتزال، الشأن فيمن ينتقل من مذهبٍ إلى آخر، فإن دفعة الانتقال تكون قوية(١)، ثم يذهب في كتابه "اللمع" يؤول النصوص لما صار أكثر تعمقاً وغوصاً واستقلالاً، ولا تعارض بين الاتجاهين، فلكل وجهة يقتضها السياق والحال، فاستطاع الإمام بمنهجه هذا أن يتدرج من القراءة الحرفية للنصوص والنظرة السطحية لها التي تنتهي حتماً إلى عقيدة "التشبيه والتجسيم" إلى مقصدٍ عالٍ يحقق التنزيه المطلق لله سبحانه(٢) .

---

(١) ينظر: أعلام وعلماء قدماء ومعاصرون، للشيخ / محمد أبو زهرة ص ٢١٢ .

(٢) هذا ما أيده د/ حموده غرابه حيث أرجع ذلك لأسباب نفسية وعلمية، والمستشرق الهولندي "أرند جان فِنْسِنْك" وغيره من الباحثين . ينظر: مقدمة اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٧، واعتبر المستشرق الأمريكي الأب "مكارثي" "الإبانة" كتاباً تقليدياً، وأن "اللمع" تخلص فيه من الاتجاه التقليدي، وأن "الإبانة" كتبه مباشرة بعد رجوعه عن الاعتزال . ينظر: تراث الإمام الأشعري بين المطبوع والمخطوط، محمد عزير شمس ١/ ٢٦٢ .

كما جزم د/ جلال محمد عبد الحميد موسى أن "اللمع" كُتب في مرحلة النضج واكتمال للرؤية العقدية للأشعري، وأن المستشرقين ومن نسج على منوالهم اعتمدوا على "الإبانة"؛ لأن "اللمع" في هذا الوقت كان مخطوطاً لم يطبع، ولم يطلعوا عليه فأدَّاهم ذلك إلى نتائج خاطئة . نشأة الأشعرية وتطورها ص ٢١٠، ٢١١، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

ثاني عشر: الإمام الأشعري لا يرفض القول بتأويل النص القرآني إذا وجدت الحجة، وتوافر البرهان المانع من حمل اللفظ على الحقيقة، وتتمثل الحجة عنده في "اللغة والإجماع والقياس العقلي الصحيح"، فالتأويل عنده قسمان: صحيح، وفاسد، فالأول مقبول، والثاني مردود، وكأن الإمام كان يلجأ للتأويل مضطراً كي يعالج داء عضال، وليخرج هؤلاء المنتسبين إلى السنة من ورطة التشبيه والتجسيم، فالتأويل عنده أشبه بدواءٍ لداءٍ كما يقال: "الكي آخر العلاج" فإذا ما نجح العلاج عاد إلى مذهب السلف الصالح .

ثالث عشر: مرونة ووسطية منهج الإمام الأشعري في توظيف النص القرآني، وتعدد طرق الاستدلال، ومناهج الحِجاج عنده، جعلت بعض تلامذته يحسنون توظيف استعمال المذهب في مواجهة تحديات طرأت عليهم، وتلك المرونة ليست حكراً على المتقدمين فحسب بل يمكن استدعاء آلياته في مواجهة التحديات المستحدثة التي تواجه الأمة اليوم من فلسفة الإلحاد والحداثة وما بعد الحداثة، لكن الأمر يحتاج إلى جد ومثابرة وفطنة، فهل يمكن أن ينتصر حق يدافع عنه محام ساذج؟!، وهل يمكن أن يتراجع باطل تحشد له ترسانة من المدافعين الأذكياء المتمرسين؟!

رابع عشر: إن دور الإمام الأشعري في وأد فتنة الخلاف بين المذاهب المتدابرة، والتيارات المتنازعة لا يمكن أن نتلاشاه أو ننساه؛ إذ كانت لديه رؤية مستقبلية استطاع معها استشراف المستقبل،

فكنس الوساوس الفكرية، ووحد الفرق المختلفة، وحمي الأمة من الانزلاق في براثن الجهل والعصبية، والغلو والتطرف، والتكفير، فكان بحق من "المجددين على رَأسِ المِائَة الثَّالِثَةِ"(١) الذين ساروا على منهج الوسطية، ولا ينكر ذلك إلا جاهل عنود أو مكابر كنود، كما ظل الإمام مرابطاً ومنافحاً أمام هذه التيارات حتى آخر رمق من حياته، ومع ذلك لم يحكم بكفرهم وخروجهم من الملة، وتلك روح عالية وتسامح فكري قلما يوجد مثله في عصره الذي عاش فيه، فهل تستطيع التيارات الأخرى – اليوم– أن تتعايش مع المنهج الأشعري دون تفسيق أو تبديع أو تكفير؟!

خامس عشر: لقد أنجب الإمام الأشعري تلامذة وأقطاب كثر على اختلاف مسالكهم، وتعدد مشاربهم، واختلاف تخصصهم، فكانوا ثلوجاً أشرقت عليها شمس الحقيقة، فتبددت غيوم الجهل، فكيف ينسب الإمام إلى التشبيه والتجسيم؟! ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾(٢)، فلولا أن الرجل على صوابٍ، ومذهبه هو الحق لما تبعه هذا السواد الأعظم الذين نعجز عنهم حصراً وعداً، ولما وضع الله له القبول في الأرض، ولما مدح معاصروه ومن جاء بعدهم منهجه، وصحة معتقده ألا فليفق الغافلون، ويرجع المعاندون، ويعلم الجاهلون، ولله در القائل:

---

(١) نص على ذلك الإمام ابن عساكر في كتابه: تبيين كذب المفتري ص ٥٣ .

(٢) [سورة ص: ٥] .

كَناطِحٍ صَخرَةٍ يَوماً لِيَفلِقَها ∴ فَلَم يَضِرها وَأَوهى قَرنَهُ الوَعِلُ[١]

أهم التوصيات والمقترحات:

يوصي الباحث في خاتمة بحثه بما يلي:

(١) العناية بتراث الإمام الأشعري من حيث التحقيق العلمي الدقيق الذي يضطلع به أهل الاختصاص، فبعضه لم يشق طريقه للنور، وما طُبع منها يحتاج إلى مزيد عناية، وإعادة نظر لينشر في حلة قشيبة تسر الناظرين، وتكون في متناول الباحثين والدارسين .

(٢) حسن توظيف الوسائل العلمية الحديثة، وتكريس وسائل التواصل على الشبكة العنكبوتية في التعريف بمنهج الإمام الأشعري وما يحمله من وسطية وتسامح؛ إذ هذا يحفز الشباب على التفاعل مع هذا المنهج الأصيل القائم على ما استقر عليه أهل السنة، وينزع منهم فتيل الإرهاب، وبراثن التطرف، ويقيهم من بلبلة أفكارهم، وما يفعله الأزهر جامعاً وجامعة ببعيد عن أنظارنا خاصة "المركز الأشعري بالقاهرة " الذي يجوب الأرض شرقاً وغرباً من أجل نشر هذا الفكر السني المعتدل .

(٣) دراسة الجانب المقاصدي عند الإمام الأشعري ووجه الاستفادة منه في الواقع المعاصر كالجانب الدعوي والعقائدي والأصولي والتربوي .... إلخ، وسبل توظيفه في حل المعضلات الحضارية والفكرية التي تُؤرق الأمة اليوم .

---

(١) ديوان الأعشى الكبير «ميمون بن قيس بن جندل» ١/٢١٨، ت: د/ محمود إبراهيم محمد الرضواني، ط: وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، الأولى، ٢٠١٠ م .

وأخيراً: إننا لنجأر إلى الله – تعالى– أن يوحد كلمتنا، ويلم شعثنا، ويزيل أسباب شقاقنا، ويهدينا جميعاً إلى ما فيه الخير والفلاح إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وآخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾[١] .

كتبه: خادم القرآن الكريم وعلومه

د / محروس رمضان حفظي

(١) [سورة يونس: ١٠] .

✍ ثبت أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم – جل من أنزله خير ما يبتدأ به – .

١. الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، ت: د. فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار، القاهرة، الأولى، ١٣٩٧هـ .

٢. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ .

٣. أشعري أنا ..... عقيدة أهل السنة والجماعة، أ.د/ محمد سالم أبو عاصي، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الثانية، ١٤٤٣ هـ = ٢٠٢٢ م .

٤. أعلام وعلماء قدماء ومعاصرون، للشيخ / محمد أبو زهرة، اعتنى به: مجد أحمد مكي، الناشر: دار الفتح للدراسات والنشر، الأردن، الأولى، ١٤٣٠ هـ .

٥. آيات الصفات بين الأشاعرة وابن تيمية، تأليف: أ.د/ محمد عبد الرحيم البيومي، ط: دار الوابل الصيب، القاهرة، الأولى، ٢٠١٧ م .

٦. البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، ت: صدقي جميل، ط: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ هـ .

٧. بحوث أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر- أعمال الإمام أبو الحسن الأشعري – إمام أهل السنة والجماعة – نحو وسطية إسلامية جامعة – ٢٤: ٢٧ جمادى الأولى، ١٤٣١ هـ = ٨ : ١١ مايو ٢٠١٠ م، الناشر: مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر "ماتن"، القاهرة، الأولى، ١٤٣٤هـ .

٨. البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الأولى، ١٣٧٦هـ .

٩. تبيين كذب المفتري فيما نَسَبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة، ١٤٠٤هـ .

١٠. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ .

١١. تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، ت: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٩ هـ .

١٢. جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، ط: الرسالة، الأولى، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م.

١٣. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه للبخاري (ت: ٢٥٦هـ)، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٤. الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، ط: دار الفكر، بيروت .

١٥. رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، ت: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، الناشر: عمادة

البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ١٤١٣هـ .

١٦. رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، نشرها عن النص المطبوع "ط: الثانية، بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيد آباد الدكن بالهند، ١٣٤٤هـ، وعلق عليها: الأب/ رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي.

١٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي (ت:١٢٧٠هـ)، ت: علي عبد الباري عطية، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٥هـ

١٨. سنن أبي داود السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، ط: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ .

٢٠. اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، حققه: د/ محمود غرابه، مطبعة مصر، ١٩٥٥ م .

٢١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٢٢ هـ .

٢٢. المستدرك على الصحيحين للحاكم (ت: ٤٠٥هـ)، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١١هـ.

٢٣. المُسنَد الصَّحيح المُختَصَر بنقل العَدل عن العَدل إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمسلم ابن الحجاج النيسابوري (ت:

٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، ت: نعيم زرزور، الناشر: المكتبة العصرية، الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م .

٢٥. مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، تأليف/ محمد بن الحسن بن فورك (ت: ٤٠٦هـ)، تحقيق/ أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الأولى، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥ م.

٢٦. الملل والنحل للشهرستاني (٥٤٨هـ)، ت: عبد العزيز محمد الوكيل ط: مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٨م .

٢٧. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، (ت: ٦٧٦هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثانية، ١٣٩٢هـ .

٢٨. نهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)، حرره وصححه/ ألفريد جيوم، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الأولى، ١٤٣٠ هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع
ملخص البحث
مقدمة
المبحث الأول: **ترجمة موجزة للإمام الأشعري**
المطلب الأول : اسمه، وكنيته ولقبه، ومولده، وشيوخه وتلامذته، ووفاته
المطلب الثاني: منعطفات مهمة في حياة الإمام الأشعري
المطلب الثالث: أهم آثاره ومؤلفاته العلمية
المبحث الثاني: أهم جهود الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني
المطلب الأول: جهود الإمام الأشعري في الرد على الملحدين والمخالفين من خلال استخدام النصوص القرآنية
المطلب الثاني: السمات العامة في منهج الإمام الأشعري من خلال الاستدلال بالنص القرآني
المبحث الثالث: أثر منهج الإمام الأشعري في الاستدلال بالنص القرآني على واقع الأمة الإسلامية
خاتمة
فهرس ثبت أهم المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات